روايات عبير

أسيرة القصر

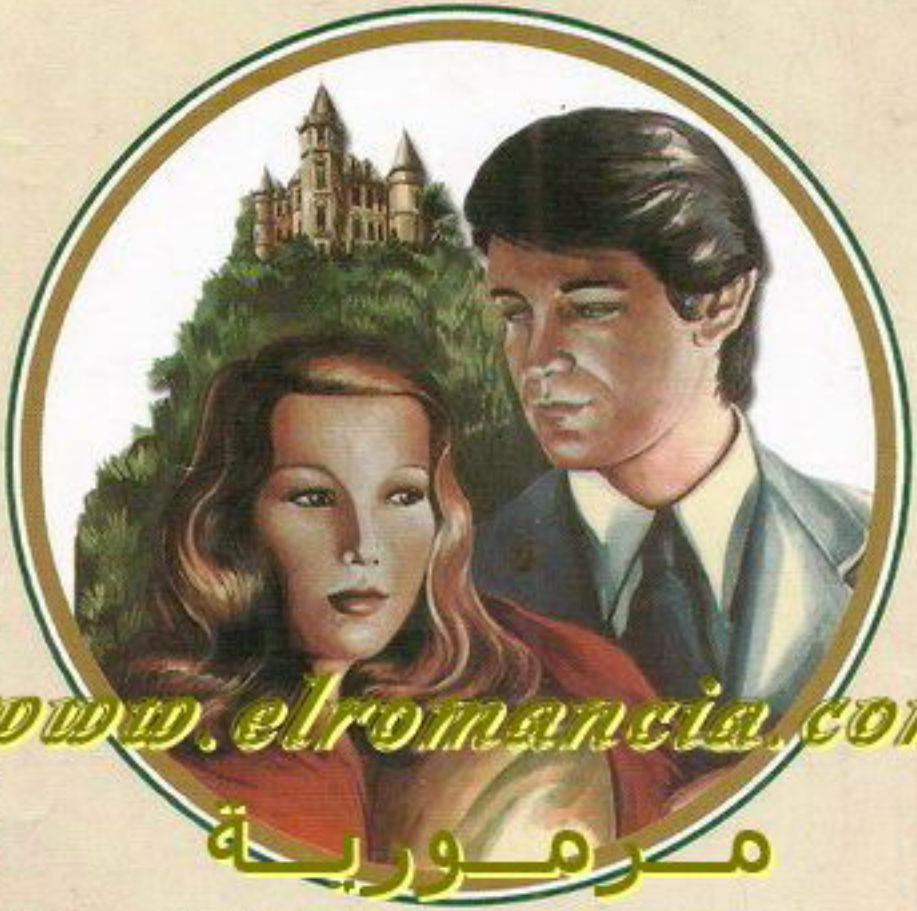

www.elromancia.com

مـــرمـــوريـــة

Kitty CASAS

N° 612

روايات عبير

همهم "جيد" ببضع كلمات غير مفهومة،
وأخذت أرجل المقعد الجالس عليه تصدر صريرا على
أرضية الباركيه .

جاء نحو "إيزابيل" ثم ثبتها في مكانها فجأة وقال :

- استرخي.. أنا لن أضربك بحق السماء.. استرخي !

ثم خطرت فكرة على باله فسألها : - هل كان يضربك ؟

ردت عليه عندما بدا واضحا أنه لن يترك الموضوع :

- ليس كثيرا .

كرر وهو مذهول : - ليس كثيرا ؟

أضافت بسرعة :

- فقط في البداية عندما كنت أجهل كيف أرضيه .

- هل كان يضربك حقا ؟

ثمن النسخة

لبنان	٢٥٠٠ ل.	قطر	٨ ريال
سوريا	٧٥ ل.	مسقط	٧٥٠ بيسة
الأردن	١ دينار	مصر	٥ جنيه
السعودية	٨ ريال	المغرب	٢٠ درهم
الكويت	٧٥٠ فلس	ليبيا	١ دينار
الإمارات	٨ دراهم	تونس	٣ دينار
البحرين	٧٥٠ فلس	اليمن	٢٥٠ ريال
U.K.	2£		

ISBN 9953-424-88-8

9 789953 424880

المقدمة

تولد "إيزابيل" وشقيقها "ستيفن" في سجن الدكتاتور "مورينو" من أم ضمن المتمردين على الدكتاتور الذي أسرها واعتدى عليها ثم قتلها في النهاية، بعد أن هربت مع ابنتها وابنها من القلعة لتعيش في مقر بعثة تبشيرية، ولكن جنود الدكتاتور استطاعوا حرق البعثة والمبشر والمتمردة ثم أعادوا الابنة والابن إلى القلعة .

يتمكن أحد كبار رجال المال والنفوذ الأمريكيين - من أصدقاء الدكتاتور- من تهريب "إيزابيل" والزواج بها، وأخضعها لسطوته وعقده النفسية بأمل مساعدتها في إنقاذ شقيقها .

تظل "إيزابيل" تتحمل العذاب سبع سنوات إلى أن يموت زوجها وترث عنه القصر والجزيرة بعد أن حرم ابنه من الميراث وطرده من الجزيرة. ينجح الابن في عمله كصحفي ومذيع أخبار تليفزيوني .

تستدعيه زوجة أبيه وتعرض عليه التنازل عن كل أملاكها لو ساعدها على استرداد شقيقها، وتجري أحداث مثيرة وغير معقولة.

شخصيات الرواية

- "إيزابيل كوربن" : زوجة صغيرة في السن لثري، تعيش ذليلة في قصر وجزيرة زوجها "آرنولد كوربن" .

- "جيد كوربن" : مذيع تليفزيوني وصحفي ناجح، ابن زوج "إيزابيل كوربن" .

- "آرنولد كوربن" : رجل من عائلة أرستقراطية ثرية.. يمتلك جزيرة وقصرا اغتصبهما من زوجته والدة "جيد" .

- "ستيفن" : شقيق "إيزابيل" .

- جنرال "مورينو" : دكتاتور جزيرة في أمريكا اللاتينية والأب غير الشرعي لـ"إيزابيل" و"ستيفن" .

- روني والتون" : مصورة تليفزيونية وصحفية مساعدة لـ"جيد كوربن" .

- "چون بيلفورت" : رئيس البعثة التبشيرية في جزيرة "مورينو"، والأب بالتبني لـ"إيزابيل" و"ستيفن" .

الفصل الأول

كان "جيد كوربن" يمتلك وجها ساحرا وصوتا عميقا يلعب بهما كما لو كان يعزف على آلة موسيقية، وقد أحس بالارتياح الشديد؛ لأن "إيزابيل" أقرت أنه لا يشبه "آرنولد" على الإطلاق .

- لقد حانت ساعة ذهابك لتنامي .

جاء هذا الأمر بصوت امرأة فظة صادر من داخل المكتبة التي كانت "إيزابيل" جالسة فيها .

- لقد أعددت لك شراب الشوكولاتة الساخن، وهو على مائدة الليل المجاورة للسرير .

تجمدت "بيتي بارنز" وهي مذهولة على عتبة باب المكتبة، إنها لا تستطيع أن ترفع عينيها عن صورة الرجل المعروضة على شاشة التليفزيون .

همست :

- "جيد" ...

همست "إيزابيل" بأن تطفئ التليفزيون ثم تذكرت أنها لم تعد مضطرة لإخفاء اهتمامها بـ"جيد كوربن" ..

سألت وهي تميل إلى الأمام حتى تتأمل التعبيرات المتتابعة على وجه الصحفي المتحرك باستمرار :

- كنت هنا قبل رحيله. أليس كذلك ؟

- لقد كان في الثانية والعشرين من عمره، وشعره كان أسود، وملامحه كانت أكثر حلاوة.. يجب ألا تشاهدي هذا الشيطان يا "إيزابيل" وإلا غضب السيد "أرنولد" .

- لقد وقع بصري مصادفة على هذه الإذاعة المعاد إرسالها من "باريس".. إنه يبدو شديد الكفاءة.

هل كانت "إيزابيل" تخشى أن تبوح بالحقيقة لمدبرة المنزل "بيتي بارنز" ؟ ليس هناك ما هو أصعب من قطع العادات التي رسخت على مر السنين .

خفضت الصوت وهي تحاول أن تتجنب حركات عدم الاستحسان الصادرة من "بيتي". إن المشهد أحسن الآن بدون صوت؛ لأن صوت "جيد" كان يمنعها من التركيز وهو رد فعل طبيعي تماما. إنهم لن يسمحوا لها أبدا بأن تشاهده، ولكنها كانت تعلم من قراءة الصحف أن تأثيره- على ملايين مشاهدي التليفزيون- واحد.

لقد كان "جيد كوربن" أشهر مقدم نشرة أخبار في التليفزيون الأمريكي، وكان قد بنى سمعته على أساس كفاءته الصحفية تتوجها طريقة خطابية ممتازة وفريدة فضلا عن جسده الممتاز الذي كان مزية كبرى له.

لقد قالت "بيتي": إنه كان في الثانية والعشرين ولا شك انه في ذلك الوقت لم يكن ناضجا، أما الشيب الذي وخط فوديه فهو دليل على نضجه وإن كان قد ظهر قبل الأوان؛ لأنه في السادسة والثلاثين من عمره الآن.

لا يمكن أن تتخيله بشعره الأسود وملامحه الرقيقة. لقد ظهرت تجاعيد وهو يعبر بوجهه البرنزي، وذلك الوميض الوقح الذي يلمع في عينيه بلون اللازورد. كان مرتديا "بلوفر" كريمي اللون، عريض الكتفين، معطفه القصير يشبه البطريق.

قالت لمديرة البيت:

- أتقولين إنه كفء؟ إنه موهوب في خلق المتاعب.

اهتز جسدها الضخم من الغيظ.

أغلقت "بيتي" جهاز التليفزيون وقالت لها:

- كيف أمكنك أن تفعلي هذا؟ أنت تعرفين أن هذا البرنامج محرم هنا. إن السيد "آرنولد" ذهب إلى قبره من يومين فقط وأنت تخالفين أوامره..

كانت "إيزابيل" متعبة لدرجة لا تسمح لها بمعارضتها في الحال، وأن تجعلها تفهم أن الأمور تغيرت ففضلت السكوت.

لقد أنهكتها الشهور الأخيرة من حياة "آرنولد"، وكان عليها أن تحتفظ بطاقتها للمعارك التعسة القادمة، ومن الأفضل لها الآن أن تطيع "بيتي"

فقالت لها:

- لقد اتصلت بـ"ليل تاونسند" بعد ظهر اليوم.. إنه غائب.. وإذا اتصل فحوليه لي حتى لو كنت نائمة.

- ولماذا اتصلت به؟

كالعادة كانت "بيتي" تدس أنفها فيما لا يعنيها، وكانت "إيزابيل" تتجاهل فظاظتها فقالت لها:

- إنه محامي "آرنولد"، واتعشم أن يمر على القصر غدا لمناقشة الوصية.

- ولكنك تعرفين محتوياتها. لقد قرأها عليك هنا يوم الجنازة.

لم تكن "إيزابيل" ماهرة في الكذب لسوء الحظ، وكان من الممكن لو كذبت أن تصبح حياتها في هذه الدار أسهل جدا ولكنها أيضا تعلمت أن تسيطر على غضبها، وأن تخفي حقيقتها وطبيعتها.. واللحظة ليست مناسبة لتغيير مسلكها.

قالت وهي تغتصب ابتسامة:

- أعتقد أن من واجبي أن تكون لدي فكرة غامضة عن أعمال "آرنولد".

اعترفت "بيتي":

- ربما.. على أية حال سأحوله لك.

- شكرا.. وتصبحين على خير يا "بيتي".

اتجهت "إيزابيل" إلى السلم الكبير المؤدي إلى الدور الثاني للقصر. قالت لها "بيتي":

- لا تنسي الشوكولاتة الساخنة؛ إنها ستساعدك على النوم.

لم تكن الوصيفة تهتم إن كانت ستنام أم لا، ولم تكن الشوكولاتة الساخنة سوى وسيلة تفرض بها سيطرتها على "إيزابيل".

لقد علم "آرنولد" خادمته كيف تصبح طاغية. كانت جيبتها القطيفة كريمية اللون تصدر حفيفا وهي تتحرك فوق الدرج الحجري الكبير.

وكانت "إيزابيل" تكره تلك الطرق التي هي من العصور الوسطى، والتي عمل "آرنولد" على تطبيقها عليها خلال سبع سنوات: مثل وجود الطاغية

المغرورة "بيتي"، وكل تلك الطرق كانت رمزا لعبوديتها، وفي القريب العاجل سينتهي سجنها وستتمكن من التركيز على الهدف الذي استعبدها طوال تلك السنوات .

كل الرموز والقيود ستتبخر في الهواء وربما سيكون "جيد كوربن" هو الثقاب الذي سيشعل النار التي ستدمر كل تلك القيود والرموز .

أمرتها "بيتي" :

– نامي بسرعة .

أضاءت ابتسامة هادئة ورزينة وجه "إيزابيل" وهي ترفع الجيب بطريقة رشيقة وعتيقة (كان "آرنولد" قد علمها كيف تقوم بها) وقالت :

– وهل سبق لي أن خالفت أمرك يا "بيتي" ؟

*****

أعلن بواب العمارة لـ"جيد كوربن" عندما رفع سماعة التليفون الداخلي :

– شخص اسمه "تاونسند" يريد مقابلتك .. هل أسمح له بالصعود ؟

– طبعا .. أنا في انتظاره .

ما إن وضع "جيد" سماعة التليفون الداخلي حتى رن جرس التليفون الخارجي، وصاحت فيه "روني" دون مقدمات وبصوت عاصف :

– لقد شاهدتك في التو على شاشة التليفزيون، ولكن ما الذي تفعله يا "جيد"؟ لقد قلت لي : إنك سترحل كذلك في إجازة .

– اهدئي يا "روني" . إنني من أجل ذلك سأقدم ذلك المسلسل في "باريس" . إن ذلك يشبه الإجازة .

– هكذا تقول! أنت ترسلني إلى "بورتو ريكو" .. وبينما أنت تتجول سائحا أحترق أنا من الشمس والرمال .

– إن أحدا لا يشكو على الإطلاق من قضاء شهرين على شاطئ استوائي .

– إن شواطئ البحر تضايقني وتشعرني بالملل .

– كل شيء يشعرك بالملل عدا كاميراتك . لقد كنت في حاجة إلى هذه الإجازة ،وحسب أقوال طبيبك فأنت لم تستعيدي صحتك منذ مغادرتك المستشفى في مدينة "الكويت" .

– إنني أضع عيني عليك يا "جيد" ، والإذاعة القادمة ستجدني على بابك .

وضعت "روني" سماعة التليفون بعنف ولم يدهش "جيد" على الإطلاق، وكان يتوقع رد فعلها هذا .

سمع طرقا على الباب ونظر من العين السحرية فتأكد الصحفي "جيد" أن الطارق هو فعلا "تاونسند" . لقد مرت أربعة عشر عاما منذ آخر لقاء بينهما، ولكنه لم يجد أي صعوبة في التعرف عليه .

كان المحامي قد زاد بدانة بعض الشيء، وخط الشيب شعره بدرجة كبيرة، ولكن "جيد" أقسم إنه لايزال يرتدي نفس البذلة التي شاهده يرتديها في الحفل الراقص في "تاكوما" ..

– ادخل يا "تاونسند" ولكن اختصر .

عبر "جيد" الحجرة ليغلق حقيبة سفره وقال للمحامي :

– لقد وصلت في وقت سيئ؛ لأنني طلبت سيارة أجرة خلال ربع ساعة .

– أعرف ذلك فقد قالوا لي ذلك عند الباب، وقد تأخرت عندما أخذوا رقمي القومي وراجعوه قبل الصعود .

– أنا سعيد عندما أدرك أنهم ينفذون تعليماتي .. أنا متمسك بحياتي الخاصة يا "تاونسند" ..

ربط "جيد" أحزمة حقيبة السفر وأغلق المحامي الباب خلفه وقال :

– لقد قمت بالرحلة العاجلة إلى "سياتل" ، وكنت أنتظر أن تمنحني بضع دقائق من وقتك الثمين .

قال له "جيد" وهو يترك الكمبيوتر المحمول :

– وماذا في رأيك أفعله الآن؟ هيا .. أنا واثق بأن الأخبار التي كلفك أبي بنقلها إليّ يمكن تلخيصها في بضع عبارات .

– إن والدك توفّي .

توقف "جيد" عن إكمال حركاته. لقد كان ينتظر سماع هذا الخبر في يوم من الأيام، ولكنه كان يجهل أنه يمكن أن تحدث عنده صدمة مقرونة بمشاعر مبهجة.

– متى ؟

– من ثمانية أيام. لقد أصيب بانسداد في الشرايين منذ عامين ولزم الفراش من وقتها ولكنه رفض بإصرار أن نخبرك بذلك.

أغلق "جيد" غطاء الكمبيوتر المحمول وقال :

– فهمت.. هل هذا كل ما هناك ؟

– ليس تماما. ومن واجبي أن أقول لك : إن والدك لم يورثك شيئا.

– لو فعل العكس لدهشت. منذ اليوم الذي بدأت أعي فيه الحياة وأبي يكرهني.

وضع "جيد" الكمبيوتر المحمول بجوار حقيبة السفر ثم قال :

– إن "آرنولد كوربن" يكره الحقيقة بكافة صورها.

– لا يجب أن تهزأ برجل ميت.

– هذا بالضبط ما قلته له في وجهه، ومسلكي أكثر شرفا من مسلكك.

– إن مكتبنا القانوني كان يهتم بكل أمانة بمصالح والدك.

– ولكنك كنت تكرهه.

تلاقت نظرات "جيد" مع نظرات "تاونسند"، ثم وافقه الأخير بهزة من رأسه وقال :

– لم أكن قد لاحظت أنك رأيت ذلك. إن "آرنولد كوربن" لم يكن رجلا مستساغا.

تعاقبت مشاعر الدهشة والاحترام على حدقتي "جيد". إن هذا الرجل مستقل الشخصية على عكس ما كان يظنه. طبعا كان ذلك الفتى المتوحش– في ذلك الوقت– بلا أدنى فكرة عن الأشخاص الذين أذلهم والده؛ فقد كانت مشاعر العذاب والكراهية وعدم الثقة تغلب على أي شيء آخر.

قال "جيد" :

– لقد كان أنانيا لا يهتم بإيذاء الآخرين مادام يحصل على ما يريد، وأنا أعرفه كما أعرف نفسي.

رد عليه "تاونسند" وابتسامة تتلاعب على شفتيه :

– نعم. أعترف بأنني كنت سعيدا عندما عرفت أنك نجحت وتصرفت بامتياز بعد قطيعتك معه ومغادرتك القصر.

لقد أصابه نجاحك بجنون الغضب. هل أتصور أنك لست في حاجة إلى نقود ؟

– لا حاجة لي بها على الإطلاق. في خلال السنوات الخمس الأخيرة كان بإمكاني أن أشتريه وأبيعه في أي وقت. إنني سعيد؛ لأنني لا أحتاج إلى شيء من ممتلكاته.

– في هذه الحالة أخشى أن تكون رحلتي قد انتهت بلا نتيجة. لقد كلفت أن أنقل إليك طلبا.

– طلبا ؟

– إنها زوجة أبيك التي أرسلتني. إنها الوريثة الوحيدة، وهي تتمنى أن تقابلك، حتى تناقش معك التسوية مقابل خدمة.

انفجر "جيد" ضاحكا بلا بهجة :

– يا إلهي! هل هذا كل شيء؟ لم أكن أنا و"شيري" متقاربين أبدا لهذه الدرجة حتى تقدم لي خدمة.. لقد قدمت لي بعض الدعوات المهمة قبل رحيلي ولم استفد منها؛ لأنني كنت أعرف أنها من الغباء بحيث تفهم أن أبي كان سيركلها بقدمه لو عرف ذلك.

تساءل "تاونسند" وقد قطب جبينه :

– "شيري" ؟

– زوجة أبي البدينة ذات عقل كعقل العصفور.

قال المحامي :

– أوه! إن والدك طلق "شيري وينستون كوربن" من فترة، ومن وقتها تزوج مرتين ووريثته تدعى "إيزابيل".

غمغم "جيد" :

– زوجة أبي رقم خمسة! كان علي أن أتوقع ذلك.. إن زوجاته لا تستمر الواحدة منهن سوى سنة أو اثنتين، وماذا تنتظر هذه السيدة مني؟

– ليس لدي أدنى فكرة.. إنها فقط كلفتني بالرسالة.

– حسنا.. الرسالة وصلت، ويمكنك أن تخبرها بأنها لا تملك أي شيء قد أتمنى الحصول عليه.

تنهد "تاونسند":

– هذا بالضبط ما ظننته. ولكني أردت المحاولة، وأعترف بأنني حزين بعض الشيء لهذه السيدة.

– ولماذا؟ امرأة غنية حتى النخاع. كم من الوقت استطاعت تحمل الحياة مع أبي؟

– سبع سنوات.

أطلق "جيد" صفير إعجاب:

– إنها تستحق كل مليم تركه لها.

– أكثر مما تظن. ففي الفترة الأخيرة من مرض والدك صار شخصا لا يطاق وأصبحت حياتها عذابا دائما.

– ولكن مستقبلا مشرقا في انتظارها.. أليس كذلك؟

تردد "تاونسند":

– لا أعتقد ذلك. لا أعتقد أنها تزوجته من أجل أمواله.

– لا تقل لي إنها كانت تحبه.

– لا.. ليس هذا النوع من... إنها ليست مثل الأخريات.

– إذن تشبه من؟

– إنها مخلوقة هشة غير مادية.. لقد سيطر عليها والدك دون أي مجهود ودون أي شفقة وكأنها مملوكة.

– مملوكة مرفهة على ما أظن.. هل هي جميلة؟

– جمالها نادر!

– إذن كان في استطاعتها أن تهجره في أي لحظة.. إن النساء الجميلات يلقين الترحيب في كل مكان.

جمع أمتعته واتجه نحو الباب وقال:

– إن سيارتي الأجرة في انتظاري.

– إذن رفضك نهائي؟

– أعتقد أنني كنت واضحا ومفهوما.

سار "تاونسند" بجواره خطوة بخطوة.

– إنها تبدو لي في حالة يأس بالغة، ودون شك ستتقبل كل شروطك. إن قصر "الشتاء" له قيمة كبيرة.

– ومن سيشتري هذا الأثر المتهالك؟ لقد كان أبي يظن نفسه ملكا متوجا، وفي أيامنا هذه لا أحد يرغب في شراء حصون أو قلاع.

– والجزيرة نفسها؟ على بعد عشرين دقيقة بالسفينة من "سياتل". إنها تمثل...

هز "جيد" رأسه فخفت صوت "تاونسند" وقال بدلا من أن يكمل عبارته:

– وهل أنت واثق بأنك لا تريد شيئا؟

– لا على الإطلاق.. ما الذي يمكنها...؟

سكت "جيد" فجأة.. تخيل منظر امرأة ترتدي ثوبا من القطيفة السوداء مثل ثياب الراهبات وشعرها أسود يلمع مثل قطرات الندى المعلقة بأغصان الشجرة التي تقف تحتها.

سأله "تاونسند":

– هل تفكر في شيء ما؟

ازداد الحنق داخل العينين السوداوين وهما ترنوان إلى القصر المقام فوق التل.

لقد أقسم أن ينساها والآن يعرف أنه لم يستطع.. أي لعبة سيلعبها على والده! لابد أن والده سيتقلب وهو في الجحيم غضبا من فكرة أن "جيد" يمتلك أملاكه الغالية، ومع ذلك لم يكن يعتقد أبدا أنه يستسلم لكراهية.. وعطش للانتقام الذي تملكه منذ غادر القصر. لقد كانت الصورة التي تخيلها لوالده مُرْضِيَة بلا حدود، ولم لا يفعلها؟ لا يهمه في

قليل أو كثير أن غريمه قد انهزم بواسطة آخر أعدائه.. إنه سيحصل على القصر!

قال بصوت رقيق :

– نعم إنني أفكر في شيء أحب أن أتملكه ولكني لا أستطيع الذهاب إلى هناك حالا. قل لزوجة أبي أن تنتظرني .

أغلق الباب واتجه إلى المصعد و"تاونسند" في أعقابه. ردد "جيد" :

– لتنتظرني.. مؤكد.. عليها أن تنتظرني .

الفصل الثاني

استقرت يد على فم "إيزابيل" بقوة أيقظتها فزعة .

– اهدئي! لن أسبب لك أذى .

كان يلفها الظلام والخوف والخطر..

فتحت عينيها وأخذ قلبها يدق بشدة وجنون.. كانت راحة اليد تغلق شفتيها.. يد قاسية وخشنة كالحجارة.. كانت مرعوبة لدرجة لم تدرك معها أنه يبقيها في مكانها بدون وحشية.. حاولت في جنون أن تصارع حتى تتخلص منها .

– اهدئي! قلت لك ذلك.. ودعيني أقوم.

فجأة انغرست أسنان "إيزابيل" في راحة اليد بعنف فسحب المعتدي يده وهو يشهق من شدة الألم :

– يا إلهي! لقد قلت لك إنني لا أريد أن..

وصلته لكمة قوية في أسفل بطنه فأخذ يتأوه من تأثير الألم.

كانت قد دارت حول نفسها وهبطت من فوق السرير إلى الأرض ثم جرت إلى الباب المؤدي إلى عتبة القصر .

أمسك بها في منتصف الطريق ثم أسقطها على الأرض وجلس فوقها القرفصاء :

– اسمعيني.. دعيني أشرح لك .

كان هذا الصوت العميق مألوفا لها بطريقة مبهمة، ولكن لم يكن لديها الوقت لتحلله. كانت سجينة تحته فلن تستطيع أن تركله بركبتيها ولكن يديها ظلتا حرتين وقريبتين من منطقة حساسة. أطلقت قبضتها بسرعة وقسوة وفاعلية .

انهار الرجل فوقها وهو يتأوه وأخذ يتحسس قبضتيها في الظلام وعندما أمسك بهما سمرهما في الأرض .

– اتركني وإلا أقسم أن أقتلك .

– لقد فعلت ما يشبه ذلك ومن الآن فصاعدا سأفكر مرتين قبل أن أقبل

www.elromancia.com

إحدى دعواتك.

كان يتناوه أكثر مما يتكلم ولكن بلكنة موسيقية مثل أنغام "الفيولنسيل"..

لقد سبق أن سمعت هذا الصوت في مكان ما.

سألته وقد كفت عن المقاومة:

– من أنت ؟

– ابن زوجك الحبيب !

عاد إلى وضع القرفصاء مرة ثانية وأكمل :

– أنا "جيد كوربن". هل ستكفين عن المقاومة لو حررت يديك ؟

استرخت كل عضلات "إيزابيل" واحست بالارتياح :

– نعم.. ولكن الغلطة غلطتك إذا كنت قد آذيتك؛ لقد افزعتني وقد كان رد فعلي غريزيا.

– إنه رد فعل غريزي قاتل.. إن "تاونسند" لا يعرف شيئا عن علم النفس.

أحست فجاة بوجوده الثقيل فوقها ورائحة المسك تنبعث منه. قالت بانفاس لاهثة :

– أرجوك.. أطلق سراحي !

– سأفعل مادمت تطلبين ذلك برقة وإن كانت لديّ رغبة في استغلال هذه الفرصة... المثيرة.

سرت موجة من الخوف في جسدها فتخشبت واستعدت لمهاجمته مرة ثانية.

– لا تخافي.. ليست لديّ نية أن أضرك.

بعد لحظات كان يعبر الحجرة نحو المائدة المجاورة للسرير وهو يقول :

– لقد كنت أتساءل فقط إن كنت تحسين بنفس إحساسي ؟!

– ماذا تفعل هنا ؟

– لقد طلبت مني الحضور.

– ليس بهذه الطريقة.. في منتصف الليل ودون أدنى إنذار.

– إنني وصلت من "باريس" وأردت أن يكون لقاؤنا سريا. ليس لأنني كنت أنتظر أنهم سيذبحون عجلا ابتهاجا لمقدمي فانا دائما غير موضع ترحيب هنا.

أضاء المصباح وأصبح وسط هالة من النور الرقيق :

– وبهذه المناسبة لم أكن أنتظر هذا الاستقبال. كنت أظن أن الوردة الرقيقة التي حدثني عنها "تاونسند" كانت ستسمح لي بالشرح قبل أن يغمى عليها من الرعب.

رغم أنه كان يشبه صورته على شاشة التليفزيون إلا أنه بدا في عينيها مختلفا.. أقل ضخامة وطوله مائة وثمانون سنتيمترا وقد ارتدى بنطلونا من "الجينز" حائل اللون ضيقا يبرز عضلات ساقيه و"بول أوفر" اسود برزت من كميه القصيرين ذراعان مفتولتا العضلات وبرنزيتا اللون. لقد رأت أنه أكثر قوة وعنفا مما يظهر به على الشاشة الصغيرة خاصة بشعره الكثيف الفضي.

نهضت "إيزابيل" ثم ركعت على ركبتيها وقالت :

– أنا آسفة لأنني خيبت ظنك ولكن زيارتك أسعدتني يا سيد "كوربن".

أخذ يبحث وهو مبهوت عن الركن الذي توارت فيه. سألها :

– ألا تشكين من طريقة تصرفي الفظة الخشنة ؟

– في رأيي لقد تعرضت انت أيضا لنفس المعاملة.

– هذا واضح.

– كيف استطعت الوصول إلى هنا ؟

– لقد استأجرت قاربا آليا من "سياتل" وجئت من الجانب الآخر من الجزيرة. إنني لا أستطيع أن أراك.. ماذا ترتدين إذن؟ باله من رداء مضحك!

– إنه قفطان.

نهضت وحاولت أن تسوي شعرها المنكوش.

صاح وعيناه السوداوان تلقيان شررا :

– ولكن لا .. تقدمي من الضوء حتى أستطيع أن أراك .

لم تتردد لحظة وعبرت الحجرة نحوه. تصلب جسده وهو يتأملها قادمة وهمهم :

– لتنزل عليّ لعنة السماء !

وقفت "إيزابيل" ثابتة أمامه وتحملت نظراته دون أن يطرف لها رمش بينما أخذت نظراته تتنقل على القفطان الطويل من القطيفة البيضاء والحزام الذهبي.. الموشى بخيوط من الذهب بنفس الطريقة التي حول كميها .

صاح وهو يلقي برأسه للخلف ويطلق ضحكة خالية تماما من السرور :

– "زوجة الشتاء" .. هذا غير معقول !

أمسك برسغها بقوة وجذبها نحو الباب وقال :

– لابد أن أراكما معا .. هل هي لازالت في المكتبة .

– نعم ولكني لا أريد أن ..

لم يعر احتجاجاتها أي انتباه وسحبها حتى الغرفة ثم إلى السلم الحجري.

– أرجوك .. لا معنى لهذا .. لقد سبق لك وعلمت أننا كنا متشابهين .

قال بلهجة باترة :

– لابد أن أتأكد .

فتح باب المكتبة بعنف ثم أضاء نور السقف :

– كان أبي محظوظا بطريقة شيطانية. هيا بنا لنتأكد .

جرها تقريبا إلى إطار المدفأة حيث علقت فوقه اللوحة. لم تكن "إيزابيل" في حاجة إلى النظر إليها لتعرف ماذا يرى "جيد". إنها تعرف كل لمسة فرشاة فيها وكل درجة للون. لقد كان الفنان البارع الذي لا مثيل له قد رسم صورة لشابة خرجت لتوها من سن الطفولة وقد ارتدت ثوبا لونه عاجي على الطراز السائد في القرون الوسطى المسمى الطراز "الميديفالي"، وثوبا مطرزا بفرو الفقمة القطبية .

كانت واقفة بمفردها تحت شجرة أغصانها مغطاة بالجليد. كانت عيناها

قد اتسعتا من الخوف والتوجس وهي تتأمل القصر المقام على تل يظهر في خلفية الصورة .

ذهلت "إيزابيل" وهي تحس بثورة غضب "جيد". لقد كانت موجات الانفعال التي ظهرت عليه تبدو وكأنها محسوسة .

قال معلقا بصوت رقيق بينما عيناه تستقران على وجه الشابة :

– رائعة! نفس التكوين العظمي الرائع ونفس الرموش الطويلة والعينين والشعر الأسود .

لمس خدها بطرف سبابته :

– يا إلهي! إن المرء ليقول: إن التشابه مذهل ونفس التكوين واحد ، وبشرتك حريرية تماما مثل البشرة الموجودة في اللوحة .

ثم تحركت نظراته إلى رقبتها وبقية جسدها :

– ربما تكون بدينة أكثر بعض الشيء من الزوجة السابقة ولكن ذلك ليس علامة سلبية على أية حال .

لمع شيء ما في عينيه الزرقاوين الصافيتين كالكريستال وكانت موجة غضب جديدة قد غمرته.

– اتركني من فضلك.. أنت تؤلم رسغي .

– آسف. لابد أن كل الزوجات عوملن برقة ثم إنني مقتنع أن أبي أثبت ذلك .

أخذت تفرك رسغها وهي شاردة. سألته :

– لماذا أنت غاضب إلى هذه الدرجة ؟

أخذ "جيد" يتنفس بطريقة متقطعة وقال :

– مرة أخرى انتصر. لقد اعتقدت أنني وجدت الطريقة التي أستعيد بها بعض ما يخصني ولكنه مرة أخرى حاصرني وهزمني.

– لست أفهم .

– إنه لا يمتلك اللوحة الغالية فحسب ولكنك أيضا "زوجة الشتاء" الفعلية .

عبر "جيد" الغرفة بحركات عنيفة لا يستطيع التحكم فيها وألقى بنفسه

على مقعد ذي مسندين وسألها :

– أين عثر عليك ؟

– في "سان ميجيل" .

– في جزيرة وسط مياه "أمريكا الجنوبية" ؟

– نعم .

– هل أنت من مواطنيها ؟

– أمي كانت من مواطنيها وأبي أمريكي ولكن لا أهمية لذلك . هل يمكننا الحديث عن السبب الذي من أجله طلبت منك الحضور؟

– إنه مهم بالنسبة لي . إن هذه الصلة الغريبة بينك وبين أبي تثير استغرابي . إنك تبدين وكأنك خارجة لتوك من بلاط الملك "أرثر" . هل كان يبهجه أن يراك هكذا ؟

لم يطرف لها رمش فقال :

– واضح . . سبع سنوات . . كم عمرك .

– لست أدري سببا لهذا السؤال . . أنا في الثالثة والعشرين .

عادت نظرات "جيد" ثانية إلى اللوحة وقال :

– تقريبا زوجة طفلة . وقتها لابد أنك كنت تشبهينها بالتأكيد .

– نعم .

– باللمصادفة !

– نعم .

– كم من الوقت استغرقه أبي ليقنعك بان تتزوجيه بعد لقائكما؟

لم تجبه فكرر :

– كم من الوقت ؟

– ثلاثة أيام .

أطلق "جيد" صفيرا خافتا :

– لم تكوني خجولا مثل "زوجة الشتاء" .

– لا أريد الحديث عنها . من الواضح أن هذه اللوحة تعذبك وتضطهدك تماما مثلما فعلت مع أبيك ولكني لست مضطرة لتحمل

غرابة أطواركما .

قبضت يد "جيد" بقوة على مسند المقعد وقال :

– بل نعم! أنت تريدين شيئا ما مني كما سبق أن أردت منه شيئا، وإلا فلماذا أنا هنا؟

كان على حق . إنها في حاجة إليه، وهي تعلم أيضا أن أحدا لا يعطي شيئا بلا مقابل، ورغم استعدادها لدفع الثمن إلا أنها لم تسأل نفسها عن الثمن الذي قد يطلبه . أخذت نفسا عميقا وهي تحاول احتواء عذاباتها واضطراباتها الداخلية في شكلها الهادئ الرزين والمعتاد .

– فعلا يا سيد "كوربن" أريد منك شيئا .

– ناديني "جيد" . على أية حال نحن من الأقارب . إنني أجهل ماذا تريدين ولكنك متمسكة به وهذا واضح .

اعترفت وهي تهز رأسها :

– نعم .

– لست مضطرة للاعتراف بذلك؛ لأن ذلك يقلل من إمكاناتك في التفاوض .

– على أية حال أنت من المحتمل أن ترى ما بداخلي؛ فلست موهوبة في مسائل التفاوض والتلاعب .

تغير تعبير وجه "جيد" بطريقة يصعب تحديدها وقال :

– لست في سذاجة أبي . إنك لن تستطيعي أن تقنعيني أنك غير فعالة ومغلوبة على أمرها! ثم إن لدي على جسدي الدليل المؤلم على ذلك .

– لست مغلوبة على أمري وأعرف كيف أدافع عن نفسي .

– آه . . نعم !

– ولكن ليس معنى ذلك أنني أريد التلاعب بالناس بل إنني مؤمنة بضرورة أن أكون مباشرة قدر المستطاع؛ لأن ذلك يسهل علي الحياة .

– وهل كنت هكذا مع أبي ؟

– بالتاكيد .

– شيء مثير .

– ألا تصدقني ؟

– كلا . ليست لديّ نية أن أصدقك ولكني قمت بما يكفي من تحريات لاكتشاف أي كذب .

– ولماذا لا تريد تصديقي؟ فهمت . أنت حانق عليّ .

تجهم جبين "إيزابيل" وهو ما تفعله عندما تحاول حل معضلة :

– أنت ووالدك لا يحب كل منكما الآخر وتعتقد أنني تزوجته من أجل ماله وهذا راسخ في عقيدتك .

– كم يسعدني لو أنك كشفت ورقك .

– فهمت .

– ولكن لا . إن علاقاتي مع أبي كانت معقدة للغاية وقد استغرق الأمر مني سنوات طويلة لافهمها .

– ليس لي أي دخل مع من يعارضك . لماذا . . .

– لا تحاولي أن تفهمي . إن رد فعلي هو عاطفي محض وكفي عن أن تنظري إليّ بإمعان بعينيك الواسعتين السوداوين؛ لأن هذا يضايقني .

– معذرة . . إنني أحاول أن أخمن .

زم "جيد" شفتيه بقوة وقال :

– الأمر بسيط . . لقد منحته ما كان يريده وأكثر . . حلمه . .

نهض واتجه نحو الباب . ثم أضاف :

– الحق معك . . أنا حانق عليك .

صاحت في خوف :

– أين أنت ذاهب ؟

– لم أكن انتظر كل هذا عند عودتي إلى هنا . . لابد أن أهضم ذلك .

– ولكن لابد من أن نتحدث . . أنا في حاجة إلى . . .

– ليس الآن . . لن يكون الأمر حكيما . . إن لديّ شعورا أنني سانفجر .

– متى إذن ؟

– ساعود مساء الغد .

– وإلى أي مكان ستذهب فوق هذه القارة ؟

– على الجانب الآخر من الجزيرة . هناك كوخ صغير عشت فيه عندما اكتشفت أنني أنا وأبي لا يطيق كل منا الآخر . لقد ظننت أنه أحرقه بعد رحيلي ولكني نحته من السفينة . . هل هناك من يسكنه؟

– لا أظن ذلك . ويمكنك أن تمكث هنا وساطلب من "بيتي" أن تعد لك حجرة .

– هل تلك العجوز الحيزبون لازالت موجودة ؟

– نعم . لقد ترك لها "آرنولد" ميراثا بشرط أن تظل تعيش على الجزيرة .

قال بابتسامة ماكرة :

– كم أحب لو بقيت فقط من أجل الاستمتاع برؤية منظرها المفزوع عندما تراني بين جدران هذا القصر اللعين، ولكن كما سبق أن أخبرتك لا أحب أن يعرف أحد بوجودي .

– ولكن هل تعدني بالعودة ؟

– لا تقلقي . أنا لم أنجح كصحفي للاشيء . لن أرحل ما لم أحصل على إجابة عن كل الأسئلة التي تدور في ذهني .

– في هذه الحالة لم لا تبقى ونتحدث ؟

– آسف . أخشى أنني لن أستطيع أن أخضع بسهولة إلى مطالبك مثل أبي .

ظهر الذهول على وجه "إيزابيل" وقالت :

– تخضع ؟ إنها أنا التي يجب أن تكون مرنة .

جاءت موجة جديدة من الغضب تتملكه :

– أنا واثق أنك أبليت في ذلك بلاء حسنا .

أغلق الباب خلفه قبل أن تستطيع الرد .

اجتاحتها ذكرى ذلك الخضوع الإجباري فأغمضت عينيها . لا . . إنها لن تفكر في "آرنولد" . لقد انتهى العذاب الطويل وستقوم ببناء حياة جديدة .

فتحت عينيها . إن ظهور "جيد كوربن" على مسرح الأحداث سيخلق

مشاكل غير متوقعة عليها أن تحلها قبل أن تقنعه أن يفعل ما يجب أن يفعله، وهي مجبرة أن تعترف في مرارة أنها يجب أن تتأقلم مع المواضع الشائكة ..

*****

كان الكوخ في مكانه هناك مختبئا على الجانب الآخر من التل وهو من الضآلة والبساطة بحيث لا يكاد يذكر بجوار القصر المهيب .

لم يكن "جيد" في حاجة إلى أن يقتحم الباب فقد انفتح من تلقاء ذاته على حزمة من الغبار التي أضاءتها أشعة القمر عبر شق محطم .

مسح الحجرة باشعة مصباح الجيب الكهربائي. لقد مرت أربعة عشر عاما.. ومن أول نظرة لم يجد ما يدل على أن أحدا احتله من وقتها وكانت نسخة رواية "الحرب والسلام" الخاصة به لاتزال على الرف الذي صنعه بنفسه. لقد كان "جيد" يكره دائما هذا الكوخ المحروم حتى من الكهرباء .

عثر على مصباح الزيت على الرف وأشعله ليفحص المكان عن قرب. من الواضح أن الحجرة في حاجة ماسة إلى التهوية والتنظيف ولكنها - بالمقارنة بالأماكن الساخنة العديدة التي نام فيها منذ رحيله من القصر إلى عالم مزقته الحروب- كانت مقبولة للسكنى .

ومع ذلك كان "جيد" يعرف أنه لن يعرف النوم. في الحقيقة عندما رحل كان يهرب من المكتبة. يلزمه الآن أن يأخذ كفايته من الوقت لتحليل رد الفعل العنيف غير المحدود الذي فجرته عنده "إيزابيل". عليه أن يسترد نفسه. إنه لم يعد ذلك الصبي المتوحش الذي تسيطر عليه انفعالاته، ومع ذلك يخفي أنه مثل ذلك المراهق الغاضب والغيور وكان سبب غضبه مفهوما أما الغيرة فهي غير مفهومة .

وحتى يطمئن نفسه عزا هذه الغيرة إلى اللوحة. إن "إيزابيل" لم تخطئ فهو مرتبط بها جدا. لقد اعتقد خطأ أنه تخلص من هذا التملك

والاضطهاد في نفس الوقت مع الذكريات الأخرى في القصر. حسنا.. إنه يرغب اللوحة جدا ولكن هذا كل ما هناك . فهو على العكس من أبيه ليست لديه النية لتحويل تلك العاطفة نحو الطفلة المرسومة في اللوحة إلى شخص حي .

استرجع صورة "إيزابيل" كما هي واقفة في المكتبة أمامه.. ضئيلة هشّة ونظراتها متسائلة ومع ذلك كانت هادئة ورزينة في هالة من الصبر والتصميم .

ومع ذلك لم تكن صبورا ولا مصممة عندما كانا يتصارعان وسط العتمة وإنما قوية وصلبة ومقاومة. ربما كان وجهها يشبه وجه "زوجة الشتاء" في اللوحة ولكنها لم تكن على الإطلاق طفلة مذعورة، وبينما هو ممسك بها وهو يلهث في الظلام أحس برغبة شديدة في تملكها. إنها رغبة بدائية ولا يمكن أن تكون شيئا آخر باعتبار أنه - لحظتها- لم يشاهد وجهها .

ولسوء الحظ كان كل شيء كما حدث في العتمة حدث وهو يتأمل وجهها في المكتبة. لم تكن عواطفه محددة ولكن ربما ثورة غضبه هي التي فاضت عن حدودها.

تساءل: ما فائدة أن يكذب على نفسه؟ إنه يرغبها دون لف أو دوران وعليه أن يتحكم في عواطفه قبل أن يقابلها مرة ثانية .

وجد في الدولاب مكنسة وأدوات ومواد النظافة. إنه يلزمه جهد شديد حتى يجعل الكوخ صالحا للسكنى وهذا ما سيفعله، وسيركز على عمله ولن يفكر في "زوجة الشتاء" ولا في "إيزابيل" .

*****

عندما فتح "جيد" باب حجرة "إيزابيل" في الساعة الثانية من صباح اليوم التالي أمسكت الشابة بذراع المقعد في عنف وتشبثت به في عصبية. كانت طوال اليوم تستعد من أجل هذا اللقاء ولكن قرارها بأن تظل هادئة تبخر مع الهواء .

كان كالليلة الماضية يرتدي نفس البنطلون "الجينز" حائل اللون مع "بلوفر" أخضر غامق برقبة عالية، وكان من الواضح أن مزاجه لم يعتدل بعد.

تجمد "جيد" على عتبة الحجرة وألقى عليها نظرة شاملة قائلا :

– يا إلهي! أليس عندك زي آخر ترتدينه غير هذا ؟

نظرت "إيزابيل" إلى قفطانها بلون أزرق كحلي مثل الليل، وهو مختلف في اللون فقط عن قفطان الأمس وقالت :

– لا ..

لم يصدقها وفتح الدولاب الخاص بالملابس ثم صاح :

– اللعنة! إنها كلها متشابهة .

– ألم أقل لك ذلك ؟

– وهل كنت دائما ترتدين له هكذا باستمرار ؟

– هذا ما كان يريده .

– وأنت دائما تمنحينه كل ما يريده .

– نعم.

– ألم يكن الناس ينظرون إليك باستغراب عندما كنت تذهبين إلى الصيدلية مثلا؟

– لم أكن أذهب غالبا إلى البلدة، وعلى أية حال لدي بعض ملابس للنهار في أعماق الدولاب .

أخذ "جيد" يفتش بين الملابس وقال :

– إنها نفس الموديل ولكن قصيرة .

كررت عليه :

– هذا ما كان يريده.. هل يمكننا أن ندخل في الموضوع الخاص بزيارتك؟

أغلق "جيد" باب دولاب الملابس واستند عليه بظهره وقال :

– طبعا ممكن. لقد أخبرني "تاونسند" أنك تريدين مني خدمة .

– اتفاق بمعنى أصح .

توترت ذراعا الشابة وقد لفتهما حول ركبتيها :

– حسنا ، هذا ما يتعلق بالموضوع: نظرا لمهنتك كان لك اتصالات كثيرة في "أمريكا اللاتينية"، ومن سنتين قمت بثلاثة برامج تليفزيونية حول ديكتاتور "سان ميجيل"...

– ثم ماذا ؟

– لقد كانت تقاريرك الصحفية مؤيدة بالمستندات وشديدة الدقة؛ حتى إن الجنرال "مورينو" ثار غضبا وطردك من البلاد؛ للحصول على هذا النوع من المعلومات؛ لابد أن لديك مصادر ممتازة .

أخذ يحدق إليها دون أن يقول شيئا. استطردت :

– عندما تزوجت "آرنولد" وأتيت إلى هنا تركت شيئا ما هناك، وأريد منك أن تساعدني على استعادته .

– ما هو ؟

– شيء ما له قيمة كبيرة ومهمة لا تقدر .

– كيف تريدين مني أن أستعيد هذا الشيء الغامض إذا كنت لم تخبريني ما هو ؟

– سأخبرك به عند وصولنا إلى "سان ميجيل" .

– هل تريدين مني أن أصحبك إلى هناك ؟

– هذا ضروري. إن اتصالاتك ربما لن تكون قادرة على العثور على ذلك الشيء بدون معونتي. أعرف أن مقالاتك قد أغضبت "مورينو" ولكن...

– لقد أرسل حرسه المقربين في أعقابي، ولقد اضطررت أن أختبئ يومين في الغابة قبل اللحاق بالباخرة التي نقلتني، وقد هددني بأن يمسك بي ويربطني ويضعني في بوتقة لصهر الحديد لو وضعت قدمي مرة ثانية على الجزيرة .

– لن يكون الأمر نفس الحال. بل قد يحدث ألا تضطر إلى الاتصال بأحد يعمل في الحكومة .

– قد يحدث؟ إن كلمة "قد" هذه غامضة لا تصلح لهدوء نفسي .

– أنا لا أستطيع أن أعدك ألا يكون الأمر خطيرا ولكني سأبذل كل ما

في طاقتي حتى لا تصاب بجرح .

كانت تتحدث بصدق ولكنه رد متسائلا :

– هل أنت التي ستقومين بحمايتي ؟

– نعم .

كف "جيد" عن التردد أمام جدية تعبيراتها وقال :

– أفضل أن أحمي نفسي بنفسي . . إنني حذر وحريص.

– لا يبدو أن الخطر ضايقك هناك في "سان ميجيل" .

– أنت مخدوعة . . لست شخصا بلا عقل .

– ولكن هل مقالاتك كانت تستحق كل تلك الأخطار ؟

– بلا شك وإلا لما تمسكت بها .

– في هذه الحالة لابد أن أقدم لك شيئا يساوي مجهوداتك .

– حتى أعود إلى "سان ميجيل" لابد أن تعرفي كيف تحولين التراب إلى ذهب .

– هذا مستحيل ولكني أستطيع أن أعطيك كل ما تريده.

– بما في ذلك نصف مملكتك .

قالت في لهفة :

– هل تريد الحديث عن الميراث؟ يمكنك أن تناله بأكمله، وأستطيع أن أحدث السيد "تاونسند" أن يعد المستندات الخاصة بالتنازل، وما إن أحصل على ما أريده من "سان ميجيل" فإن "قصر الشتاء" يصبح لك .

قال وهو مبهوت:

– هل تتخلين عنه ؟

– أنا لا أريده، ولم أرغب أبدا في الحصول عليه . فقط عليك أن تصحبني إلى "سان ميجيل" .

أخذ يتفحصها في صمت لحظات ثم قال :

– لديّ إحساس بأنك جادة .

صاحت في نفاد صبر :

– طبعا . . هل ستأخذ الجزيرة والقصر؟ لقد كبرت هنا والقصر يعني

طبعا شيئا بالنسبة لك .

– وبالنسبة لك ؟

– لا .

– في هذه الحالة أنت تملكين المال .

– فقط في الحدود التي تسمح لي بالحصول على ما أريده .

قال لها وقد زاد اهتمامه :

– "سان ميجيل" ؟

– هل توافق ؟

– إن ذلك المكان لم يترك لي ذكريات كبرى .

اجتاح اليأس "إيزابيل" وقالت :

– في هذه الحالة لماذا أتيت؟ ماذا تريد ؟

قال بصوت رقيق :

– وكيف لي أن أضمن ذلك؟ لقد أردت نفس الشيء الذي أراده والدي: "زوجة الشتاء" .

– خذها وأضف إليها الجزيرة، وساحرر الوثائق اللازمة.

قال وهو ينهض وهو يرفع يده عاليا :

– ليس بهذه السرعة! لست واثقا إن كانت تلك اللوحة تستحق الثمن الذي تطلبينه مني. لابد أن أجري بعض مكالمات تليفونية إلى "سان ميجيل"؛ لأعرف ما إذا كان "مورينو" لايزال يريد سلخ جلدي حيا وما إذا كان أصدقائي لازالوا في مواقعهم .

– وهذا يستغرق كم من الوقت ؟

– بضعة أيام وربما أسبوعا على أقصى حد .

اضطرت أن تكبت لهفتها. إن أسبوعا إذا ما قورن بسبعة أعوام لا يعد في الحقيقة شيئا .

– هل ستتصل بي عندما تتخذ قرارك ؟

– قبل ذلك أحب أن تأتي إلى الكوخ غدا .

– لماذا؟

– مجرد نزوة.. ربما اجتاحتني رغبة أن أشاهدك. ليس في كل يوم أستطيع أن أتامل "زوجة الشتاء" عن قرب.

– لست أفهم..

تشابكت نظراتهما وكانت نظرات "جيد" تلمع سخرية ولكن شيئا آخر كان يلمع على السطح: الغضب؟ لابد إذن أن يصحبها إلى "سان ميجيل".

قالت لتهدئ من غضبه:

– ساحضر.

– أشك في ذلك. لقد لاحظت من قبل أنك تقدمين دليلا على المرونة الشديدة عندما يحلو لك ذلك. سانتظرك في الساعة الثالثة.

ثم خرج.

الفصل الثالث

أخذت "إيزابيل" نفسا طويلا قبل أن تطرق باب الكوخ.

– ادخل!

كان "جيد" واقفا بجوار الغلاية ذات المدخنة السوداء وبنظرة واحدة شملت القفطان عاجي اللون من الحرير الجرسيه والخفين من جلد الوعل الأبيض.

قال:

– هيا.. هيا! اليوم من حقنا أن نتمتع بالتغيير!

– ولكن بقية قفاطيني لا تعجبك على ما يبدو.

– وأنت قررت أن تنالي إعجابي. بالروح المصالحة!

قالت بهدوء:

– لماذا تترك التفاصيل التافهة تعوق المهم؟

– وما هذه الرقة؟

رفع إبريق إعداد القهوة من فوق الغلاية الحديدية السوداء وسألها:

– هل تريدين قهوة؟

– لا. شكرا.

– اجلسي.. هل يضايقك أن أحتسي قدحا؟

هزت رأسها علامة النفي ثم ذهبت لتجلس أمام المائدة. بخلاف المائدة والغلاية لا يوجد بالحجرة سوى مقعدين وأرفف معلقة على الجدران وسرير عار من غطاء الفراش، ونافذة بلا ستائر تطل على البحر وتحتل مساحة كبيرة من الجدار المقابل لها.

كان ديكورا جافا للغاية ولكنه شديد النظافة.

قالت:

– إنك حتى لا تملك أغطية للفراش. لماذا لم تأت للقصر؟

– إن اهتمامك يؤثر في. لقد القيت بالأغطية والبطاطين عندما اكتشفت أنها مليئة بالبق، وقد اشتريت غيرها هذا الصباح ولكن لم يتح

www.elromancia.com

لي الوقت لوضعها .

جلس أمامها وقدح القهوة في يده وقال :

– إنني أفضل أن أكون وحيدا .

– لماذا ؟

– لما كنت لم أرك حتى الآن سوى الجانب المضيء من أخلاقي فإنني أخشى أن افاجئك بالجانب المظلم. تصوري أنني لم أنجح أبدا في نيل إعجاب وصيفتنا الحبيبة "بيتي" ، وأنا واثق أنها لو تمكنت لوضعت مسامير مغموسة في الزفت في سريري، ومن ناحية أخرى فإنني أحس هنا براحة؛ لقد بنيت هذا الكوخ بيدي في آخر سنة لي بالمدرسة .

شملت "إيزابيل" الحجرة بنظرة اهتمام وقالت :

– حسنا! لقد أنجزت عملا ممتازا .

– أحقا ما تقولين ؟

تكوم فوق مقعده وأخذ يفحصها باهتمام ثم قال :

– وقتها كان عليّ أن أفعل شيئا يهدئ من إحباطي .

– يمكنني أن أفهم ذلك .

– وماذا كنت تفعلين لتهدئي من إحباطاتك ؟

أحست "إيزابيل" بالاحمرار يكسو خديها من لهجته فقالت :

– كنت أدرس .

– وماذا كنت تدرسين ؟

– كل شيء وأي شيء. أنا حتى لم أنته من دراستي الثانوية عندما تزوجت "آرنولد" ، وقد حصلت على البكالوريا بالمراسلة، واستمررت ، وفي العام الماضي حصلت على ليسانس في الفنون الحرة .

– ولماذا لم تذهبي إلى جامعة "سياتل" ؟

– لم يرغب "آرنولد" في أن أغادر الجزيرة .

– حتى ولو لاستكمال دراساتك ؟

قالت له بلهجة اعتنت أن تكون مجردة :

– لم يكن يرى فيها أي جدوى ولكنه سمح لي بالدراسة بالمراسلة .

قال بعد أن همهم بكلمات بذيئة :

– سمح لك؟ بالكرمه! مادام ذلك لا يتدخل في قيامك بدورك الرئيسي.. أليس كذلك ؟

– بالضبط .

نظر إليها نظرة دفعتها لأن تغير موضوع الحديث :

– ولكن ليس في الكوخ تليفون فكيف ستتصل بـ"سان ميجيل" ؟

– لقد تم الاتصال هذا الصباح .

– ولماذا لم تقل لي ذلك في الحال؟ ماذا علمت ؟

– أن "مورينو" لايزال يسعى لسلخ جلدي .

– واتصالاتك ؟

– لايزالون في أماكنهم .

ضغطت أصابعها المتشابكة بقوة حتى احمرت المفاصل وسألته :

– وما هو قرارك ؟

– لم يتم اتخاذه بعد .

– متى ..

قاطعها :

– ليست لديّ أدنى فكرة. لابد أن أقدر المخاطر والمزايا .

تجهمت أساريرها وأخذت تفحص وجهه الخالي من أي تعبير وسألته :

– هل هذه لعبة ؟

– إنني أعتبرك شديدة الريبة .

– أحيانا.. "آرنولد".. نعم لابد أن أكون كذلك .

رد عليها :

– لقد نسيت الأعيب أبي، والغاية التي تبرر الوسيلة.. إنني لا ألعب تلك الألاعيب. أنا لست أبي يا "إيزابيل" !

– وكيف لي أن أعرف ؟ أنت تشبهه في بعض النواحي، وعواطفكما متطابقة بالنسبة "لزوجة الشتاء" مثلا .

– لسنا متشابهين حقا. أنا لم أبنِ حياتي حول لوحة .

– ولكنك تريدها دائما .

– الأحرى أنني عندما كنت صبيا صغيرا لم تكف أمي عن أن تكرر لي أن "زوجة الشتاء" ستصبح ملكي يوماً ما، وعندما اضطررت لأن أتركها لأبي أحسست بالجرح العميق .

– ولماذا فعلت ذلك؟ لابد أنها كانت تعلم أن "آرنولد" لن يتنازل عنها لأي شخص أبدا .

– إن الجزيرة والقصر واللوحة ملك لأسرته منذ قرن .

اتسعت عينا "إيزابيل" بدهشة وقالت :

– لقد كنت أجهل ذلك. إن "آرنولد" لم يخبرني أبدا كيف حصل عليها .

– بعد زواجه أمي سرعان ما حصل على كل شيء وسيطر عليه. لقد اعتبر نفسه ملكا متوجا وهو المظهر المناسب لمرض جنون العظمة الذي كان مصابا به، لقد نجح في تحمل أمي حتى وفاتها ولكن ظل يذلها باستمرار وجعل حياتها جحيما .

كانت المرارة بادية بقوة في نبرة صوته. فكرت "إيزابيل" أن "آرنولد" جعل حياة ابنه أيضا جحيما؛ كانت تشعر بالتعاطف معه. لقد عاشت هي نفسها جحيما طوال سبع سنوات ولكن عذاب "جيد" استمر أطول من ذلك بكثير. وضعت يدها بحركة لا شعورية على يده وهمست :

– أنا آسفة .

أحست بعضلاته تتقلص تحت يدها ولكنه لم يسحب يده وقال :

– لا يجب أن تشعري بالأسف. لقد كففت عن التأسي على حالي منذ سن الثالثة عشرة، ومن وقتها لم يسيطر علي سوى الغضب والرغبة في أن أُري ذلك الوحش كل أنواع وألوان العذاب .

ابتلع جرعة من القهوة وهو يقول :

– يمكن لـ"تاونسند" أن يخبرك أنني استطعت أن أتصرف وأنجو ببراعة .

– ألم يجرح ذلك أمك أيضا ؟

– لقد كانت محطمة تماما. لقد أجبرها على أن تترك له القصر ولوحة

"زوجة الشتاء"، وكانت تعيش في فراغ كامل ومؤثر على أعصابها وهي تسارع فقط لتلبية طلباته ورغباته. أحيانا ما كنت ألمح وميضا غريبا في عينيه وكان مسلكها يسعده. كانت قد ضعفت بحيث أصبحت شديدة المرونة عاجزة عن معارضته .

كانت لسعات العذاب التي تعودتها قد مستها وشملتها في تلك اللحظات.

سحبت يدها .

– في هذه الحالة أشعر نحوها بالشفقة .

قال وقد كست وجهه قسوة بالغة :

– إنها كانت تشعرني بالشفقة عليها أيضا. لقد وقعت كالعمياء في الشرك؛ لأنها اعتقدت أنه يحبها. في حين أنك تعرفين بالضبط ماذا كنت تفعلين.. أليس كذلك ؟

– نعم بالضبط .

– لا تنتظري أن تثيري تعاطفي معك.. إن المرء يحصد ما يزرعه.

– إنني لا أنتظر أن أوحي إليك بأي شيء كان .

قال بعصبية :

– ومع ذلك أنت تثيرين ضيقي وتسببين لي الاضطراب .

تصلب جسدها أمام الصدمة التي نتجت عن قسوة تعبيره فقال لها:

– هل هذا يدهشك؟ لماذا؟ لقد قلت إن أبي وأنا لدينا نقط مشتركة وهذه واحدة منها.

فجأة أصبح الهواء ثقيلا لا يصلح للتنفس. لم تستطع "إيزابيل" أن ترفع عنه عينيها. قال :

– لقد عملت حتى الإعياء هذه الليلة حتى أتأكد من أنني أستطيع النوم، ولكن دون جدوى، لقد كنت أتألم وسط الظلام وأنا عاجز عن التفكير في شيء آخر سواك. إنني أحس بالألم في كل جسدي .

– أنت الذي كنت مضطربا ولست أنا .

هز كتفيه وقال :

– هل تظنين أن ذلك كان بسبب "زوجة الشتاء" ؟ ربما. لقد كان بسبب "إيزابيل" !

هزت رأسها دون أن تصدق ما تسمعه .

– ولكن لا .. هذا مستحيل! أنا واثقة بأنك ستغير رأيك عندما تزول عنك التأثيرات المبدئية. ربما لا يكون السبب "زوجة الشتاء" وإنما صدمة عودتك بعد سنوات طويلة .

– لقد شفيت من الصدمة الأولى ونهضت بسرعة على قدميّ .

وضع يده على يدها مرة ثانية ودهشت "إيزابيل" ؛ لأنها لم تحس بنفس الشعور المشرق الذي أحسته في المرة الأولى. حاولت بحركة غريزية أن تقطع هذا الاتصال وما نتج عنه من أحاسيس ومع ذلك شدد من قبضته ثم قال :

– يا إلهي! إن جلدك ناعم جدا ..

همست :

– اتركني !

بدا وكأنه لم يسمعها واستمر في حديثه :

– طوال الليل فكرت في نعومة خدك تحت أصابعي.

قفزت واقفة على قدميها وانتزعت نفسها وقالت :

– يجب أن أعود؛ لأن "بيتي" ستبحث عني .

– عودي إلى الجلوس فلم ننته بعد .

ضمت قبضتيها إلى جانبيها بقوة وخفضت عينيها نحوه دون أن تتحرك. قال برقة :

– لا تنسي أنك حضرت إلى هنا حتى أشاهدك عن قرب .

– وقد تم ذلك .

– ليس بالطريقة التي أردتها وليس بالطريقة التي حلمت بها طوال الليل. هل تريدين أن تعرفي كيف ؟

همست بصوت مرتجف :

– لا .. دعني أرحل من فضلك .

– يا للأدب الجم! هل هو الذي علمك ذلك ؟

كانت الوحشية تختفي خلف صوته الناعم كالقطيفة. تراجعت "إيزابيل" للخلف وقال لها :

– وماذا علمك أيضا ؟

– هل يمكنني الرحيل ؟

لمعت عيناه اللازورديتان وسط وجهه المتوتر ثم أشار إلى الباب :

– أيتها الفتاة الصغيرة المذعورة.. اخرجي من هنا وعودي غدا. هل ستعودين ؟

فتحت الباب وقالت دون أن تلتفت خلفها :

– طبعا مادمت لم تعطني بعد ردك .

– هذا صحيح.. "سان ميجيل" .. كيف استطعت أن أنسى؟ يجب أن أفكر في ذلك وأنا أنتظر عودتك .

أغلقت "إيزابيل" الباب دون أن ترد عليه. بعد لحظة ظلت ثابتة في مكانها ورياح الخريف الباردة تصدم وجهها وتنعش خديها الملتهبين. كانت ترتجف خوفا؛ إن اللحظات التي عاشتها أخيرا في الكوخ قد أفسدت هدوء روحها وهزمتها. ربما حدث ذلك؛ لأنه أخذها على غفلة .

لقد توقعت أن تجعله يحس بالحقد والغضب ولكن ليس بالرغبة المحمومة. لقد صدمها اعترافه وجعلها تحس بالتقزز. تماما كما كانت تشعر وهي تتراجع في كل مرة يلمسها فيها "آرنولد" .

لقد كانت تظن نفسها من نوع السيدات الباردات العواطف كالثلج. لم تكن أبدا تتصور أن مجرد لمسة بسيطة تضعها في هذه الحالة. إنها لن تسقط وتغرق في الانجذاب الذي يوحي به "جيد كوربن" .

لقد رأت في "سان ميجيل" في أي نوع من الفخاخ كانت الرغبة توقع النساء فيها. ومن ناحية أخرى فلربما يكف عن رغبته فيها في الغد ، ومن الأفضل ألا تفكر في المشكلة التي قد تحدث في حالة ما إذا حدث العكس.

ابتعدت عن الكوخ في خطوات سريعة وكأنها تهرب من شيء .

*****

قال "جيد" دون أن يرفع عينيه عن الكمبيوتر المحمول :

– ادخلي واجلسي. وساكون معك بعد لحظات.

بعد الليلة الخالية من النوم التي قضتها "إيزابيل" أحست بالارتياح العميق؛ إنها لم تخطئ، من الواضح أن "جيد" نسي كل شيء .

ذهبت لتجلس على الدكة الخشبية تحت النافذة المطلة على الفراغ. إنها تعشق المحيط في جميع حالاته وتشرد وهي تتامله متجاهلة في وقت واحد صوت أصابع الكمبيوتر وصوت اضطراب قلبها، وعندما أدركت بعد ساعتين أن "جيد" لم يعد يطرق على أصابع الكمبيوتر لم تكن قد غيرت من وضعها.

سألها :

– فيم تفكرين ؟

قالت وهي تحول عينيها نحوه :

– أرجو المعذرة .

– لقد كنت فظا وسخيفا؛ لأنني جعلتك تنتظرين ساعتين ومع ذلك بدا عليك الرضا والهدوء مثل قطة لعقت سلطانية من الحليب .

جلس على مقعده واضعا ساقيه أسفل فخذيه وقال :

– هل كنت تحلمين ؟

– لقد .. لقد كنت أتخيل .

– الست واثقة بما كنت تفعلينه أم أنك لا تريدين أن تشاطريني أحلامك ؟

– إيه .. حسنا .. لقد كنت دائما ... ولكن ماذا يهمك في ذلك ؟

رد عليها بصوت جاف بعض الشيء :

– لم تكوني على نفس الكوكب الذي أنا عليه وهذا يضايقني .

– لماذا؟ أبدا لم يحاول "آرنولد" ...

أضاء وميض الغضب وجه "جيد"؛ مما جعلها تصمت وهو يقول:

– أنا لست أبي، وفي بعض النواحي أكون أنا أكثر إلحاحا منه. أنا لا يمكن أن أرضى بتمثال عارٍ .

– ولكنك قلت إنك تريد فقط أن تتاملني .

– نعم ولكني لا أستطيع أن أفهم لماذا تتحملين طرقي السيئة. لماذا لا تهربين وسط الغابة ؟

قالت له ببساطة :

– أنا لا أريد أن أغضبك .

غمغم "جيد" ببعض الكلمات بصوت غير مسموع وأخذت أرجل المقعد تصر فوق الباركيه. جاء نحوها ثم ثبتها فجاة في مكانها. وقال :

– استرخي .. إنني لن أضربك .. بحق السماء .. استرخي !

ثم خطرت على باله فكرة فسالها :

– هل كان يضربك ؟

ردت عليه عندما بدا واضحا أنه لن يترك الموضوع :

– ليس كثيرا .

كرر وهو مذهول :

– ليس كثيرا ؟

أضافت بسرعة :

– فقط في البداية عندما كنت أجهل كيف أرضيه .

– هل كان يضربك حقا؟ آخر مرة رأيته فيها كان يزن حوالي مائة كيلو جرام وكنت قد خرجت من سن الطفولة. لقد كان طاغيا مع النساء ولكنه لا يسيء معاملتهن جسديا .

– لقد كانت علاقتنا مختلفة .

قال وقد خرج عن نفسه :

– لأنه كان يعلم أنك لن تردي له الصاع صاعين. لماذا لم تدافعي عن نفسك ؟

– لأن ذلك لم يكن اتفاقنا .. لقد وعدته .

– ماذا ؟

همست :

– أن أفعل وأن أكون كل ما يرغبه .

www.elromancia.com

– حتى ولو كنت حقيبة الرمال التي يستخدمها الملاكم للتدرب على اللكم ؟

– لم يكن يحدث ذلك كثيرا .

أمسكها من كتفيها وشدد من قبضته في قسوة غير معقولة :

– لم يكن من الواجب أن يحـــدث ذلك. أنا أرغب في أن أهزك وأوقظك.. كيف استطعت ذلك ؟

تقلص وجه "إيزابيل" من الألم فتركها وهو يشعر بالاشمئزاز من نفسه وقال :

– وأنا أفعل مثله.. ذلك الشيل من هذا الأسد.. هل كنت ستدعينني أضربك أنا أيضا ؟

– أنت لا تشبهه .

– السؤال ليس في هذا. هل كنت ستتركينني أضربك ؟

– نعم .

– يا إلهي !

بدا وكأنه سيهم بضربها من شدة غيظه .

قالت بلهجة متوحشة فجأة :

– إن الألم ليس شيئا. إنني أستطيع أن أتحمل كل شيء، وأفعل كل ما يجب علي فعله .

– من أجل المال ؟

– المال ليس الغاية .

– من أجل "سان ميجيل" ؟

– لقد أخبرتك أنه من الضروري أن أعود إليها، ولا شيء آخر يهمني .

بعد أن تاملها فترة ذهب ليجلس على المقعد في الطرف الآخر من الحجرة وقال :

– في هذه الحالة عليك أن تعثري على شخص آخر غيري ليصحبك إلى هناك .

– أنا لم أخترك بمحض المصادفة. بعد مغامرتك في "سان ميجيل"

حصلت على كل المعلومات عنك وفكرت كثيرا قبل أن أقرر أنك أحسن من يمكنني اختياره لمساعدتي .

قال بتأكيد :

– أنت مخطئة.. وهذا أسوأ اختيار لك .

أمسك بحافة المائدة وتشبث بها ثم قال :

– أنت تسببين لي إحساسا شاذا فبعد ثلاث دقائق من وجودك لا أعرف أين أنا؟ ولا ماذا أكون ؟

– لقد أخذت تعمل ساعتين دون أن تهتم بي .

– أنت مخطئة.. لقد كنت أحس بك ولكني أرفض الاعتراف بذلك.

– في هذه الحالة عليك أن تستمر في تجاهلي .

– هذا صعب. لديّ إحساس بأنني أصبحت الكلب الصغير المجنون الذي كنته من أربعة عشر عاما. صدقيني: أنت توحين إليّ بردود فعل غير منطقية على الإطلاق .

– يمكنني أن أتعودها.. أقصد ردود فعلك .

– مثل بقية كل شيء؟ مثل نزوات وشطحات ذلك القذر؟ لقد تركته.. هل تفهمين؟ أترين أن أعود مرة ثانية؟ ابتعدي عني مادامت هناك فرصة.

هزت رأسها نفيا، وبعد صمت طويل ارتسمت ابتسامة مجنونة على وجهه وقال :

– في هذه الحالة عليك تحمل المخاطر والأخطار! ولماذا أقلق عليك؟ أنت تعرفين ما تريدين ، وأنت مستعدة لأن تفعلي أي شيء للحصول على ما تريدين، واعتبارا من الآن ساكتفي أن العب دور الشخص المختار من حسناتنا الغالية الرقيقة "زوجة الشتاء" .

– لست رقيقة .

– لا.. أنت أكثر أهمية من ذلك. في الأيام القادمة سنختبر هذه الفلسفة القائمة على مبدأ القبول أو الرضوخ. أريد أن أرى إلى أي مدى تريدين مني الذهاب إلى "سان ميجيل" .

– لقد سبق أن أخبرتك .

– بالنسبة لي، الأفعال أهم من الأقوال .

– ماذا تريد مني ؟

– أن تعودي إلى هنا بعد غد والأيام التالية . أريد أن تطيعيني مثلما كنت تفعلين مع أبي وأن تقبلي ما أطلبه منك .

– وهل ستصحبني إلى "سان ميجيل" ؟

قال بصوت خشن :

– لا أعدك بشيء . ربما نعم وربما لا .

– لست أفهمك .

– هل تقبلين شروطي : نعم أم لا ؟

ترددت ولكن ردا وحيدا هو الممكن :

– سأفعل كل ما تريد .

أخذت أرجل مقعد "جيد" تسحق الأرضية الخشبية وهو يقول :

– عودي غدا في الحادية عشرة .

– كم من الوقت يجب عليّ أن أبقى ؟

– إلى أن أقول لك ارحلي .

– إذا تغيبت أكثر من ساعة فإن "بيتي" ستقلب الدنيا .

– يا إلهي! لا تقولي لي إن تلك الخادمة تعطيك أوامر ! إنها ليست سجانتك . . أخبري هذه الحيزبون أن تهتم بشؤونها الخاصة فقط .

كان كلامه سهل القول صعب التنفيذ . إنه لا يتصور مدى الصعوبة التي لاقتها حتى تفلت من عيون الثعلبة المدعوة "بيتي" منذ يومين .

– سأكون هنا في الحادية عشرة .

أمسك بذراعها وهي تمر عليه في طريقها للخروج وقال :

– لحظة من فضلك . . اهدئي أنا أريد فقط . .

خفض رأسه ببطء ثم لثم راحة كفها برقة وقال لها معتذرا :

– أرجو أن تسامحيني على وحشيتي .

ثم وجدت يدها حرة .

همس دون أن ينظر إليها :

– إلى الحادية عشرة .

إن الحنان صفة من الصعب أن تعزوها إلى "جيد" ومع ذلك كان من المستحيل إنكار مدى رقة تلك القبلة على راحة اليد .

اجتاحتها فجاة رغبة مفاجئة أن تلمس شعره الفضي الكثيف وأن تدس فيه أصابعها .

لقد كانت حركة غريزية من وحي اللحظة، مثل تلك التي اجتاحت "جيد" من قبل جعلتها مذهولة وأرعبتها أكثر من أي شيء حدث لها حتى الآن .

همست قبل أن تهرب :

– إلى اللقاء !

الفصل الرابع

– لقد تأخر الوقت وأريد العودة للقصر .

رفع "جيد" عينيه عن شاشة الكمبيوتر وسألها :

– ألا يوجد من فضلك؟! أين ذهبت أخلاق فتاة الجيشا اليابانية؟ إنك بذلك ستطردين من نقابتهن .

حاولت "إيزابيل" أن تنسى ومضات الألم التي سببتها لها كلماته . لم يستطع أحد من قبل أن يخل بتوازنها مثله .

إنها كانت تستطيع الاستماع إلى "آرنولد" وهو يحرقها بكلماته دون أن يطرف لها رمش ، أما سخرية "جيد" فكانت تمس وتر إحساسها بدرجة مؤلمة .

– من فضلك .. لقد اعتقدت أن أدبي يضايقك .

– كل شخصيتك تضايقني : طريقتك في النظر إليّ وصوتك الناعم كالحرير .

أغلق الكمبيوتر المحمول واستطرد :

– وهذه التفاهات التي كتبتها طوال ما بعد الظهر .

– إنك لا تستطيع أن تلومني على عجزك عن الانتظار ثم إنك لم توجه إليّ كلمة واحدة منذ وصولي .

– ليس معنى هذا أنني أجهل وجودك .. لقد جعلت تركيزي يذهب أدراج الرياح .

أحست "إيزابيل" أنه كان مدركا لوجودها وأنها مدركة لوجوده منذ خمس ساعات . كانت جالسة بجوار النافذة وكل عضلاتها مشدودة بسبب التوتر الذي يسري فيها كالكهرباء .

نظرت ليديها المتشابكتين على ركبتيها :

– لا حول لي في ذلك ولا قوة . أنا لم أختر الحضور إلى هنا ، وإذا كنت تريد العمل فمن الأفضل أن تتركني في القصر .

– لم أرد أن أعمل وإنما أردت أن أعرف إن كنت أستطيع أن أعمل .

انظري إليّ! يا إلهي! أنا أكره ألا أتحكم في كل شيء واعتقدت أنني أستطيع تجاهل وجودك ولكن لم أفلح أبدا .

– أنا لم أفعل شيئا لإزعاجك .

– هذا بالضبط ما يزعجني ! جلستك الثابتة وتعبير وجهك الذي يشبه القديسة .. أنت تدفعينني إلى الرغبة في تكسير شيء ما .. في تحطيمك .

نهض واتجه ببطء نحوها واستطرد :

– أريد أن أسمعك تصرخين في وجهي .. أريد منك أن تضربيني .. أريد أن أراك بدون هذا القناع الشيطاني .

كان قد اقترب جدا من "إيزابيل" حتى إنها أحست بحرارته المنبعثة من جسده الملتهب .

قالت وقد تقطعت أنفاسها :

– أنا لا أفهمك . لست أرتدي قناعا .

مرر سبابته على حلقها؛ مما جعلها تشعر بالنار مكانه :

– أي قناع يمكن نزعه بالسلاح المناسب . هل تحبين أن ألمسك ؟

لم تكن تحب ملمس إصبعه على حلقها وإن كانت تشعر برغبة عارمة ومؤلمة تجتاحها .

– لنر ماذا تحبين أيضا ؟

بدأت "إيزابيل" ترتجف .. ما الذي حدث له؟ إن تصرفاته لم تعد طبيعية وحركاته تثير عندها رغبات مخيفة لم يسبق لها أن أحستها من قبل . بدأ رأسها يدور وأحست بأنها على وشك الإغماء، يبدو أنه كان يريد أن يعرف مدى تأثيره عليها وقد نجح في اختباره؛ لأنها لم تعد تتحمل المزيد .

قالت :

– إن لديّ الرغبة في أن أفعل كل ما تريده .

أحست به وقد غضب وتكدر وقال :

– إنها مجرد كلمات مبتذلة وعادية لا معنى لها .

بهتت "إيزابيل" من التغيير المفاجئ في مسلكه . ابتعد عنها فجأة وانفجر صائحا :

– هيا اخرجي من هنا !

نظرت إليه بعينين مذهولتين وسألته :

– هل تريد مني أن أرحل ؟

ارتفع صوته حتى وصل إلى حد الصياح :

– إذا لم تخرجي من هنا في الحال فستندمين أشد الندم .

حاولت النهوض ولكنها أحست بجسدها ثقيلا من الانفعال والرغبة والخوف .

أمسك بيدها بقوة ورفعها من فوق المقعد ثم دفعها دفعا نحو الباب :

– هيا اذهبي وأغلقي نفسك داخل قوقعتك .

كانت "إيزابيل" مصدومة لدرجة لم تفهمه وسألته :

– ألا تريد مني العودة غدا ؟

– بلى ،بالتأكيد أريدك أن تعودي! سأكون قد شفيت من تأنيب الضمير المزعج وأحصل على ما أريد .

أدار لها ظهره وقال :

– اخرجي من هنا .

انطلقت الشابة عدوا ووصلت إلى القصر عن طريق الممر الخفي المغطى بالشجيرات دون أن تبطئ من سرعتها لحظة واحدة؛ لقد كانت تحترق كلية. ما الذي جرى لها ؟

عبرت الدهليز وهي في حالة تامة من اليأس وأوشكت أن تلقي بنفسها فوق الدرج الحجري. كانت عودتها إلى الكوخ في اليوم التالي أمرا مستحيلا وغير قابل للنقاش .

لقد أطلق "جيد" بداخلها مشاعر خطرة. إنها لا تسمح لنفسها أن تنمحي من أمامه وأن تصبح ورقة في مهب الريح، ربما كانت هناك وسيلة أخرى كي ...

– ما الذي حدث لك يا "إيزابيل"؟ أنت تصعدين الطريق وكأنه الشيطان في أعقابك .

فزعت الشابة؛ كانت "بيتي" في انتظارها أعلى الدرج مثل تمثال لقائد

حربي .

أدركت "إيزابيل" فجأة أن شعرها أشعث من الريح. احمر خداها وهي تتذكر ما جرى من لحظات في الكوخ. سادها إحساس أن "بيتي" رأت ما جرى في الكوخ. استجمعت شجاعتها وهي تمر بجوار الخادمة .

قالت متلعثمة خوفا من أن تنظر إليها :

– لا شيء.. لقد اجتاحتني فقط رغبة في أن أجري .

– كان هذا من الممكن أن يغضب السيد "آرنولد"؛ لقد كان يريد منك أن تتحركي بكرامة .

– لقد نسيت .

قالت "بيتي" بحدة :

– واضح أنك نسيت كل ما علمه لك. أين قضيت النهار ؟

– لقد قمت بنزهة طويلة .

– أنت تتنزهين كثيرا هذه الأيام .

كان صبر "إيزابيل" قد وصل إلى النهاية، ودت لو انفجرت في المرأة وصفعتها وركلتها وطردتها ولكنها قالت :

– إن النزهات تفيدني كثيرا مثل الشوكولاتة الساخنة .

– هذه وقاحة .

– هكذا الأمر ولا كلمة أخرى! مفهوم ؟

لم تتح الفرصة لـ"بيتي" أن تردّ وصعدت حتى الطابق الثاني ثم دخلت غرفتها وصفقت الباب وأسندت ظهرها عليه من الداخل. لم تكن واثقة بإمكان السيطرة على نفسها لو تبعتها الخادمة إلى داخل الغرفة، وكما كان يحدث في الزمن الذي لم تكن تستطيع فيه أن تخفي ثورتها وإحباطها أحست برغبة حارقة أن تلقي بشيء ضد الجدار ويتحطم .

تنصتت.. لم تسمع صوت الخطوات الثقيلة للخادمة والتي توقعتها.. لقد نجت من المحاضرة المعتادة .

اتجهت إلى الحمام وهي تخلع ملابسها في الطريق. حاولت أن تسترد جأشها تحت الدش البارد. يجب أن تنسى ردود أفعالها مع تصرفات

"جيد" . لقد كانت منذ البداية تدرك أنه قد يطلب منها مطالب خاصة ولكن لم تتصور قط أنها يمكن أن تستجيب لتلك المطالب بهذا العنف .

لقد قرأت أن بعض الناس يفقدون أي رغبة إذا كتموا عواطفهم طويلا .

ما الذي تفكر فيه؟ إن الياس والحاجة علّماها أن تتقوقع على نفسها في لحظات التوتر الكبرى، وألا تنتبه أبدا إلى ما يجرحها فعلا. لابد أن تتواءم مع الموقف، ولابد أن تحصل على شيء إيجابي مقابل تعذيب "جيد" لها .

فكرت في أن تحصل منه على طفل. أدفأتها تلك الفكرة مثل شعاع شمس في يوم بارد. منذ وقت طويل كانت تعشق الأطفال وهي تتمنى إنجاب طفل ولكنها يائسة.. لقد كان زواجها من "آرنولد" حبرا على ورق

إنها لم تكن تطيق أن يلمسها، ولم تفكر أبدا في أن تحصل على طفل منه رغم شدة رغبتها، والآن وقد نجح "جيد" في إسقاط ذلك الحاجز، قد يمكن أن تحصل على الطفل الذي تمنته. نعم ستمنح "جيد" ما يريد وستحصل على أغلى شيء عندها : وهو طفلها هي..

*****

وقف "جيد" وسط الحجرة وكأنه محاط بدوامة من العواطف المحسوسة. لقد استعدت "إيزابيل" لمواجهته. عندما نظرت إليه اعتقدت أنها تشاهد قلب الإعصار .

قال بصوت أجش :

– لقد تأخرت واعتقدت أنك لن تحضري .

– لقد اضطررت للانتظار حتى.. "بيتي".. ولكن ماذا تفعل ؟

– صه !

رأت هالات سوداء تحيط بعينيه عندما اقترب وجهه منها حتى أوشك أن يلمسها وكانت شفتاه ترتجفان من الانفعال. قال :

– لا تقولي شيئا، وإلا فقولي لا بصوت عال وقوي .

كان ينظر إليها وقد تشوه منظر وجهه. قال :

– بعد رحيلك أمس سببت نفسي بكل أنواع السباب. لقد أوشكت أن

أتبعك إلى القصر ثم تمالكت نفسي وقررت أن أعاملك مثل بقية النساء .

أمسك بيدها ووضعها على قلبه قائلا :

– هيا هل تحسين ضربات قلبي الشديدة؟ إنني على وشك أن أصاب بأزمة قلبية .

أحست بأن إعصارا رفعها إلى عالم آخر وأحست بأن توترها ذهب فجأة.

سألها عن علاقتها الزوجية بوالده .

نظرت لأسفل في خجل وردت عليه هامسة :

– لقد كان "آرنولد" عاجزا قبل زواجنا.. لقد أصيب بمرض و...

– لا عجب إذن في أنه أراد أن تكوني سجينته .

– لقد رغب في ألا يلمس أي رجل المرأة التي يعتبرها ضمن ممتلكاته، وعلى أية حال كان أبوك يعتبرني امرأة باردة ومجردة من العاطفة .

– ولكنك معي مختلفة. لماذا ؟

– لأنك تريد ذلك .

قال في غضب :

– ليس هذا هو السبب .

– أنت لك أسبابك وأنا لي أسبابي. أنا لم أسألك لماذا كنت ترغبني، ولا يهمني إن كانت رغبتك هذه موجهة لي أم لـ"زوجة الشتاء" .

تشابكت نظراتهما ثم قال :

– لا أصدق ما تقولين ولكن فعلا لديّ أسبابي الخاصة ولا أنوي الكشف عنها .

سكت فترة ثم سألها :

– وهل للحب دخل في ذلك ؟

– بل له دخل كبير.. لقد دهشت أنا نفسي من ذلك .

– إلى أي حد دهشت؟ لقد ظننت أنك مغلقة على نفسك تحاولين حمايتها ..

– لا تقلق عليّ .

ارتسمت ابتسامة رضا على شفتي "جيد" وقد أحس بالارتياح.. لقد

www.elromancia.com

أسعده أن يعلم بحالة والده عند زواجه من "إيزابيل". قال لها:

– هل أنت سعيدة ؟

احمر وجهها ورفعت يدها إلى خدها .

– إن هذا الوضع جديد عليّ.. إنني أحس بحيرة شديدة واضطراب لا حدود لهما .

– وأين ذهبت رزانتك وسكينة نفسك ؟

– إنني أجد صعوبة في استعادتهما.. هل يمكن أن تترك يدي ؟

– ولكني أحس بسعادة ويدي ممسكة بيدك. وهل تحسين أنت أيضا بالسعادة معي ؟

– نعم.. هذا شعور جديد عليّ ولكنه جميل .

قال لها بلهجة رسمية وخطابية :

– شكرا.. إن الرجل يشعر بالفخر عندما تسعد المرأة معه .

ضحكت فسألها :

– لماذا تضحكين؟ أجد أن الوقت غير مناسب .

– فعلا لابد أن نكون جادّين .

الفصل الخامس

– أيتها المستهترة !

انتزعت الإهانة "إيزابيل" من شرودها وإغفاءتها الخفيفة. فتحت عينيها نصف فتحة ورأت وجه "بيتي" الذي شوهه الغضب وجسدها الضخم محشور في فتحة الباب الخاص بالكوخ.

قالت الخادمة وهي تتجه نحو السرير :

– أيتها المنحرفة !

نظرت "إيزابيل" مدفوعة بالغريزة نحو "جيد" الذي جلس على الفراش ببطء وصاح بغضب في وجه الخادمة :

– كما أرى فإن السنين لم تعلمك الأدب.. وفي حالة ما إذا كنت لا تعرفين فإن الأدب يدعو إلى طرق الأبواب قبل الدخول .

ظلت "بيتي" مركزة عينيها الرماديتين الباردتين كالثلج على "إيزابيل" ولم تعر "جيد" أدنى انتباه وهي تقول :

– إذا تصورت أنك ستهربين من رقابتي فأنت واهمة. لقد أخبرني السيد "آرنولد" أنك ستخونينه عند أول فرصة .

اتجهت بأنظارها نحو "جيد" وعيناها تطلقان شرر التهديد والوعيد :

– أنت لم تستطع أن تقاوم.. أليس كذلك؟ إن أحسن وسيلة للانتقام من زوج أمك هو أن تحول زوجته إلى مستهترة ...

قاطعها "جيد" بصوت مثلج :

– اهدئي يا "بيتي".. إن مشهدك المسرحي هذا لا يبهجني ولا يسليني. اخرجي من هنا .

– أنا هنا في بيتي. لقد عمل السيد "آرنولد" على ذلك، والدخيل هو أنت .

قالت لـ"إيزابيل" آمرة :

– انهضي واستعدي فساعيدك إلى القصر.

عندما لم تتحرك الشابة حدجتها "بيتي" بنظرات مشحونة بشرر الغضب

www.elromancia.com

وصاحت :

– ما الذي تنتظرينه ؟

أحست "إيزابيل" بالاضطراب من أن "جيد" قد يحاول الانتقام من زوج أمه فحاولت ألا تتعذب .

جاءت راحة كف "بيتي" لتستقر بصفعة هائلة على خد "إيزابيل"، وتحت تأثير الصدمة سقط رأسها للخلف وأحست بجدران الحجرة تطبق عليها ويسود الظلام لحظات . سمعت صياح "جيد" بصورة مبهمة وأحست به وهو يقفز خارج الفراش .

قال بصوت كفحيح الأفعى :

– إلى الخارج وإلا ألقيت بك في البحر وتعودين إلى القصر سابحة .

كان قابضا على رقبة الخادمة بيد من فولاذ، ردت عليه الخادمة بصوت مخنوق :

– ليس بدونها .. لابد أن ...

خرج فحيح من زور الخادمة؛ لأن "جيد" شدد قبضته على رقبتها وهو يدفعها بلا رحمة إلى خارج الكوخ .

صاحت بصوت متحشرج :

– اخرجي يا "إيزابيل" من سرير هذا القذر واتبعيني؛ أنت تعلمين أنه يجب عليك طاعتي .

ألقى "جيد" بالمرأة بوحشية خارج الكوخ وأغلق الباب وراءها . ضم قبضتيه بقسوة وظل بعد ذلك فترة بلا حركة . ثم عاد إلى السرير .

قال بصوت مبحوح :

– لقد أوشكت أن أخنق هذه الحية الرقطاء . هل آذتك ؟

كذبت عليه "إيزابيل" رغم خدها الذي كان يؤلمها :

– لا .. لا بأس .

رفع وجهها ولمس خدها الملتهب .

– لقد صفعتك صفعة رهيبة ! من الواضح أن زوج أمي لم يكن هو الوحيد الذي كان يتلذذ بضربك .

– لم يسبق لـ"بيتي" أن ضربتني .. ثم أخبرني لماذا دعت "آرنولد" زوج أمك وليس أباك ؟

– هذه هي الحقيقة . إن ذلك الوغد لم يكن أبي .

صاحت في دهشة :

– هذا إذن سبب الحقد الذي كان بينكما .. لقد اغتصب أملاك أمك والتي من المفروض أن تؤول إليك .. أليس كذلك ؟

أحست "إيزابيل" بأنها ضعيفة وهشة، وكانت تصارع بكل قوتها حتى لا تلقي بنفسها عليه بحثا عن الأمان والراحة التي تحتاج إليها بشدة . قالت له :

– هذه أول مرة تغضب لهذه الدرجة .

– طبعا لأنك كنت دائما مستسلمة لأوامرها .

أخذ "جيد" منشفة من فوق رف وذهب ليبللها بالماء من صنبور حوض المطبخ . واصل كلامه :

– لو فكرت أنها أفلتت بتصرفها هذا فهي واهمة أو ربما فقدت صوابها .

– لقد كانت دائما حانقة علي . لقد كان زواجي من "آرنولد" مثل ذرة ملح فوق جرح مفتوح؛ لقد كانت تحبه كما تعلم .

استدار "جيد" نحوها :

– ماذا ؟

– أعتقد أنه لم يعرف ذلك أبدا، ولكني لاحظت ذلك بعد شهر من وصولي إلى الجزيرة . لقد رأيت بوضوح أنها مجروحة عندما منحني الكثير من اهتمامه .

– وأولتك أيضا نفس الاهتمام .

عارضته بهزة من رأسها فقال :

– لماذا لم تخبريني أنها كانت تهددك باستمرار ؟

– إنك لم تكن ستصدقني .. لقد كنت ستأخذ الأمر على أنه نوع من المناورة والتهويش .

– لم يعد الأمر كذلك بعد الآن .

اقترب منها ووضع المنشفة المبتلة على خدها الملتهب قائلا :

– ليس في ذلك غرابة .

تملكتها الرجفة مرة ثانية . لابد أن تذهب قبل أن يكتشف "جيد" رجفتها . أمسكت بيده حتى يكف عن حركته بالمنشفة وقالت :

– لم أعد أحس بالألم . . ولو سمحت فساستعد للرحيل إذا لم يضايقك هذا .

ألقى "جيد" بالمنشفة على الأرض وصاح :

– يضايقني؟ لقد تعرضت للهجوم وتظنين أنني ساتركك هكذا بكل بساطة؟ من تظنيني ؟

– أرجو المعذرة . . لم أكن أرغب في أن أثير غضبك لهذه الدرجة . إنني لم أستطع أن أفكر . .

– يا إلهي! إنك ترتجفين مثل ورقة في مهب الريح .

جلس على السرير وقربها منه وأخذ يهدئ من روعها :

– هيا استرخي! إنك متصلبة تماما .

– لا . . لا . . كل شيء على ما يرام .

– كل شيء على ما يرام لدرجة أن من يراك يظن أنك مصابة بحمى الملاريا . هيا استرخي ودعي الأمور في حالها . . إنني لن ألومك على شيء ولا على أي من تصرفاتك؛ لأنها طبيعية .

خافت أن تستسلم . . ماذا سيحدث لو هدمت الحواجز التي احتمت وراءها من سنوات ؟

ربت "جيد" على شعرها وقال :

– حسنا . . سندرس الأمر من وجهة نظر أخرى . لقد أخبرتني أنك على استعداد للخضوع لكل رغباتي وإذا استمررت فإنني ساغضب بشدة، وإذا غضبت فإن كل مشروعاتي ستصبح موضع شك .

– لا . . لا أريد منك أن . . .

– صه !

كان يتحدث بصوت هادر كالرعد وإن كان يكشف عن بعض الرقة التي

ظهرت في حركات يده :

– لا تندمي على أنك إنسان وبشر .

بدلا من أن ترد عليه الرد المطلوب في هذه الحالة ظلت مشلولة؛ أحست بأنها تحطمت إلى ألف قطعة تسقط فوقه . قال بصوت حنون :

– لست سوى طفلة . . لماذا لم يلتفتوا إلى هذه الحقيقة ؟

أخذت تفكر في ثلاث كلمات : السلام، والحرارة والقوة .

ظلت متجمدة وهي غارقة في وجوده الآمن .

أخيرا ابتعدت عنه على مضض وفي الحال حل الفراغ محل الأمان . قالت بصوت متقطع دون أن تنظر إليه :

– شكرا جزيلا .

سألها بعينيه بلون اللازورد :

– هل أنت بخير ؟

– نعم . . لقد أصبت بصدمة . . لم أكن أنتظر هذا .

وضعت قدميها بحركة عنيفة فوق الأرض قائلة :

– سأعود إلى القصر .

قال بصوت مليء بالمهانة والغيظ :

– لا مجال للمناقشة في ذلك .

سوت ملابسها وشعرها فأكمل حديثه :

– أنت لن تعودي إلى القصر .

– أنا مضطرة . . ليس لي أي مكان أذهب إليه .

جلست على حافة السرير وارتدت خفيها من جلد الوعل :

– متى تريد مني أن أعود ؟

– كيف تريدين مني أن أدعك تواجهين تلك التنين ؟

– إنها لا تشكل أي خطر .

– إن الكدمة على خدك بلونها الأزرق دليل على ذلك .

– كما سبق أن قلت لك . . لقد فاجأتني وأنا لا أخافها .

– ولكني أنا أخاف عليك .

نظرت إليه في ذهول فقال :

– لا داعي لان تبدو عليك مظاهر الذهول. أنا مسؤول عن الضرر الذي سببته لك تلك الحيزبون الشمطاء، ولن يحدث ذلك أبدا مرة ثانية .

مشطت "إيزابيل" شعرها وحاولت أن تنسى الأمان ورغد العيش الذي توحي بهما كلماته. قالت :

– لا تقلق.. هل يجب أن أعود غدا ؟

– أي رأس بغل لك! ألم يخطر على بالك أنك يمكنك استغلال كل هذا لتجبريني على اتخاذ قراري بالنسبة لموضوع "سان ميجيل" ؟

قالت بابتسامة واهنة :

– لا.. لقد سبق أن قلت لك.. أنا لا أستطيع استغلال الأحداث.. ثم لو حاولت لربما ألقيت بي في البحر .

– لو أنني فهمتك جيدا فإنني أحس بأنك ستظلين تعودين إلى هنا إلى أن أتعب وأمل منك ثم تعودين إلى القصر حيث تلك الغوريللا تسيء معاملتك.. إن هذا أمر لا يصدق !

– أنا متأكدة ...

– حسنا.. سأصحبك إلى "سان ميجيل" .

رغم أن قلبها كان يتقافز من الفرحة إلا أنها ظلت مذهولة لا تنطق. همست :

– أحقا ما تقول ؟

– ليس من عادتي أن أكذب يا "إيزابيل"، وأتصور أنك مستعدة دائما للاستجابة لرغباتي. أليس كذلك ؟

– نعم .

– إن "سان ميجيل" بعيدة. أنت تضطهديني وأتعشم أن أتحرر من هذا الاستعباد قبل الوصول إلى هناك .

سألته :

– متى سنرحل ؟ حالا ؟

وافقها بهزة بطيئة من رأسه قائلا :

– إنني أريد أن أخرجك من كل هذا في أسرع وقت .

بعد كل تلك السنوات سيحدث الأمر. إن "إيزابيل" تحس وكأنها في دوامة.. أغمضت عينيها. سألها :

– هل هناك ما يسوء ؟

سارعت نحو الباب ورفعت الترباس ثم فتحته :

– سأعود خلال ساعة وهو الوقت الذي يلزمني لحزم أمتعتي وإحضار جواز سفري.. يا إلهي! لقد تذكرت.. لقد انتهت فترة صلاحيته.

– إن لي أصدقاء في وزارة الخارجية وسيساعدوننا بسرعة في الحصول على الجواز الجديد. انتظريني أنا قادم معك .

نهض ليرتدي ملابسه ولكنها قالت :

– لا داعي لذلك. إن وجودك سيزيد الأمور تعقيدا .

نظر إليها نظرة سريعة من خلف كتفه :

– أنت لن تواجهي تلك الوحش بمفردك .

– إنها لن تسبب لي أي ضرر .

– كيف تعلمين ؟

– سأمنعها.. ألم تفهم؟ لقد انتهى كل شيء.

حاول "جيد" أن يمنعها ولكنها لم تستمع إليه؛ لقد اجتاحها شعور بأنها لا تسير وإنما تطفو على سطح الماء وهي تقطع الطريق الخفي إلى القصر .

إن هذه السعادة الغامرة ستساعدها على مواجهة "بيتي" .

*****

كانت المرأة التنين في انتظارها في الخارج وقالت لها :

– هل تعرفين كم عدد النساء اللاتي تسللن إلى ذلك الكوخ؟ كل منحرفات القارة! لقد كنت أشاهدهن يتبخترن عند مسقط المياه وهن عائدات... أين أنت ذاهبة ؟

قالت "إيزابيل" التي كانت قد وصلت لمنتصف الدرج :

– إلى حجرتي .

تبعتها "بيتي" وهي مستمرة في نفث سمومها :

– إنه يستغلك للانتقام من السيد "آرنولد" وأنت تساعدينه على ذلك .

– اخرجي يا "بيتي" !

دخلت "إيزابيل" حجرتها واتجهت مباشرة إلى دولاب ملابسها والمرأة الحيزبون تواصل وصلتها :

– أيتها الوقحة! لقد أصبحت مغرورة للغاية منذ السيد ... ولكن.. ماذا تفعلين ؟

أخذت "إيزابيل" حقيبة سفرها المصنوعة من الجلد الطبيعي وألقت بها فوق السرير. ثم ذهبت لإحضار كومة من الملابس الداخلية من الكومودينو وألقت بها داخل الحقيبة .

– أجيبي عليّ !

– ولكن الأمر واضح.. إنني أحزم أمتعتي .

– هل ستنتقلين إلى الكوخ ؟

– ساغادر "جزيرة الشتاء" .

شهقت "بيتي" :

– هذا مستحيل.. إن مكانك هنا .

وقفت "إيزابيل" أمام الدولاب المفتوح وهي تتأمل أثوابها في تقزز. أخذت واحدا من أجل الرحلة وأخذت ثلاثة أزواج من الأحذية ذات الرقبة المصنوعة من جلد الوعل .

تذكرت كيف كان "جيد" يصف إعجابه بملمس جلد الوعل وسرت موجة حارة في كل جسدها. تخشبت في مكانها وتاهت نظراتها في الفضاء. اعتبرت "بيتي" هذه علامة على ترددها فقالت :

– إنك ستستردين عقلك. إن الوقت لم يفت بعد. أفرغي حقيبتك وانسى كل حماقاتك .

– دعيني يا "بيتي" . أمامي أشياء لابد أن أقوم بها .

اتجهت "إيزابيل" نحو مكتبها وأخرجت جواز السفر ودفتر الشيكات الخاص بها من الدرج العلوي ثم وضعت المستندات داخل حقيبة يدها .

ردت عليها "بيتي" وهي في حالة صدمة :

– ماذا تقولين ؟

– لقد سمعتني جيدا .

– هل سترحلين حقا ؟

– فور انتهائي من الدش وتغيير ملابسي ولا أريد أن أجدك هنا عند خروجي من الحمام .

كانت قد وصلت إلى باب الحمام. قبضت يد "بيتي" الضخمة على ذراع "إيزابيل" الرقيقة مما أجبرها على أن تستدير. صاحت المرأة :

– أيتها المنحلة .. ساعلمك ..

– دعيني .

كانت "إيزابيل" تنطق كل حرف على حدة بكل دقة وبرودة كالثلج:

– أنت لم تعلميني أبدا أي شيء ولن تعلميني على الإطلاق. أنا سأختار ما أتعلمه. لقد تركتك تسيئين معاملتي طوال تلك السنوات ولكن ذلك انتهى. أنت شريرة وقاسية وحقود وأتعشم ألا أراك مرة ثانية أبدا .

شددت "بيتي" من قبضتها وقالت :

– أيتها الصغيرة المتوحشة :

– لقد قلت لك اتركيني .

ومض بريق وحشي في عيني "إيزابيل" واستجمعت كل طاقتها حتى تفرض إرادتها على تلك المرأة :

– في الحقيقة أستطيع أن أكون متوحشة.. وهو فن تعلمته في مدرسة لا تعرفين عنه شيئاً .

انفجرت "بيتي" في ضحكة احتقار :

– بالنسبة لي أنت لست سوى رضيعة وإذا ظننت أنك قادرة على...

انقطعت ضحكتها عندما التقت عيناها بعيني الشابة وتراجعت.

قالت "إيزابيل" وهي تخلص ذراعها من مخالب "بيتي" :

– إياك.. إياك.. أن تلمسيني أبدا.. اخرجي من هنا .

حاولت الوصيفة أن تسترد ثقتها بنفسها :

– ستندمين على ذلك. إنها ليست أنت التي يريدها وإنما يريد "زوجة الشتاء" تماما مثل السيد "آرنولد" وعندما يكتفي منك ستعودين إلى هنا زاحفة.

– لن أعود.. لقد قلت لك إن كل شيء انتهى.

صفقت "إيزابيل" باب الحمام في وجه الحيزبون الغاضبة وهي تأمل أن تكون قد تمكنت من أن تخفي عنها خوفها. يجب أن تدع نفسها تتأثر من ذلك الاضطهاد الذي يحسه "جيد" نحو تلك اللوحة مادام يوجد بينهما انجذاب وليس مجرد اتفاق عملي.

إن حياتها الجديدة بدأت وأمامها هدف أهم بكثير عليها أن تصل إليه أفضل من التاوه والتأسي على أمور لا تستطيع أن تفعل حيالها شيئا.

*****

أخذ "جيد" حقيبة سفرها منها وساعدها على الصعود إلى القارب الآلي ونظر إليها نظرة قلقة قائلا :

– هل الأمور بخير ؟

أجابته وهي تبتسم :

– ممتازة.. لقد قلت لك إنه ليست هناك أي مشكلة.

– إنك تبدين بمزاج مرح.. ألم تحاول أن تمنعك ؟

سألته "إيزابيل" مفضلة أن تغير الموضوع :

– إلى أين نحن ذاهبان ؟

– إلى مطار "سياتل"، وساجري مكالمة تليفونية إلى "بورتوريكو" قبل أن نرحل إلى "سان جوان". وهناك سنستقل يختا إلى "سان ميجيل".

– أليست الرحلة بالبحر تستغرق وقتا طويلا ؟

– أربعة أيام تقريبا ولكنها أكثر أمانا من الطائرة عندما نرغب في التسلل خفية في البلاد.

أدار المحرك وابتعد القارب الآلي عن اللسان سائرا للخلف وقال مكملا حديثه :

– أستطيع أن أؤكد لك أنني مصر على هذه السرية.

– وأنا كذلك.

– هل يمكنني أن أسألك كم من الوقت يلزمنا حتى نستعيد كنزك؟

– هذا يرجع إلى مدى فاعلية اتصالاتك.

نظر إليها "جيد" نظرة غيظ ثم سألها :

– متى تقولين لي المزيد عن الأمر ؟

– ما إن نصل إلى "سان ميجيل".

قال معلقا بعد أن ألقى نظرة سريعة على حقيبة ملابسها :

– ليس لديك الكثير من الأمتعة.

– لم يكن هناك ما يغريني بأن أحمله. بمجرد أن نصل إلى "سان ميجيل" سأتنازل لك عن "زوجة الشتاء" كتابة.

– نوع من الحرص.. أليس كذلك؟ لا "سان ميجيل"، لا "اللوحة"!

– لا.. أنا أعرف جيدا أنك لن ترجع عن كلمتك.

قال لها بخشونة :

– أنت لا تعرفين عني شيئا.

– بل أعرف! أنت عنيد وجريء وشجاع ومصمم، وأعرف كذلك أنك ذكي وأقل خشونة عما تحب أن يظنه الناس، وأنا لا أكف عن معرفة المزيد.

– لن يكون ذلك سهلا. سيكون من حظنا لو وصلنا إلى "سان ميجيل" في أمان وصحة.

– سينجح الأمر ولن يحدث لك شيء.

هز "جيد" رأسه ثم قال :

– إن تفاؤلك يسعدني، ويبدو أن كل هذا يجعلك سعيدة.. أنت تزدادين إشراقا !

– فقط؟ إن لديّ إحساسا بأنني سأنفجر.

ألقت نظرة على الجزيرة التي بدأت تختفي عن بعد :

– لقد انتهى الحزن يا "جيد".

*****

عند مغادرتهما سيارة الأجرة رفعت "إيزابيل" عينيها نحو الفندق الشامخ وقالت :

– لقد ظننت أننا سنذهب مباشرة إلى اليخت .

– هناك مَنْ لابد أن أقابله في الفندق .

– من ؟

– "روني دالتون" .

– هل هو الشخص الذي اتصلت به من "سياتل" ؟

– نعم. سنرحل هذا المساء لو نجح "روني" في استئجار اليخت، ولكن هناك بعض التفاصيل لابد من تسويتها .

– وما هي ؟

– في مقدمتها جواز سفرك. لابد من تسويته .

بعد أن منح "جيد" السائق منحة أمسك "إيزابيل" من كوعها ودفعها نحو مدخل الفندق وقال بصوت منغم :

– لا تخافي من شيء. أنا متأكد من أن كل شيء سيمر على خير ما يرام. إنني أحس بذلك .

– لنأمل أن تكون على حق .

تركزت نظرات "جيد" القلقة على وجه "إيزابيل" المشرق. وقال :

– سبع سنوات مدة طويلة يا "إيزابيل" . إن أي شيء له قيمة يمكن أن يختفي في لمح البصر في دكتاتورية عصابة "مورينو" .

قالت له بلهجة مرحة :

– هل أنت في سبيلك لحمايتي ؟ لماذا ؟ أنت لست ...

– ليس الأمر مبكرا ...

تقدمت منهما شابة فارعة الطول ترتدي "چينز" حائل اللون وسترة جلدية بنية عندما دخلا البهو، وفي الحال سجلت عينا "إيزابيل" الخضراوان خصلات الشعر القصيرة للشابة الشقراء والمشعثة ولون بشرتها الوردي. كانت تشبه الملاك الشارد.

قالت المخلوقة الفاتنة وهي تقف أمامهما ويداها في جيبي الچينز :.

– حسنا ، إنني انتظرك منذ دهر .

– لقد تأخرت رحلتنا ساعتين .

– لقد بدا لي أطول من ذلك. أنت تعرف مدى كراهيتي للانتظار.

استدارت نحو "إيزابيل" وسألت :

– من هي .. هذه ؟

– "إيزابيل كوربن" .. "إيزابيل" هذه الشابة التي لا تعرف الأدب هي "روني دالتون" ، وهي مصورة غير عادية ولسوء الحظ ليست موهوبة في باقي المجالات .

نظرت "روني" إلى "جيد" متسائلة :

– "كوربن" .. ؟ زوجتك ؟

– زوجة أبي .

همست "روني" :

– من يراها يظنها "سندريللا" .. إنهن لم يعدن يظهرن في أيامنا هذه .

أضاءت ابتسامة صبيانية وجهها ذا الجمال الملائكي حقا .

– كان عليّ أن أعرف أن أي امرأة عاقلة يمكن أن تتزوجك يا "جيد" .

سألتها "إيزابيل" في أدب :

– كيف حالك ؟

– أحسن بكثير منذ أن بدأت الأمور تزداد أهمية .

ثم استدارت نحو الصحفي وقالت :

– لقد استأجرت يختا به مقصورتان، وأمامنا أسبوعان نعيشهما فيه. متى سنرحل ؟

– ستبقين أنت هنا، وسنرحل هذا المساء لـ"سان ميجيل" .

صاحت "روني" :

– هذا شنيع.. لقد قلت لك ...

قاطعها "جيد" :

– لست في تحقيق تليفزيوني. إنها رحلة خاصة تماما ولن أغامر بأن أعرض حياتك للخطر .

– مسألة عائلية ؟

– يمكن القول كذلك .

– وهي ؟ هل ستذهب إليها ؟

قالت "إيزابيل" :

– لابد أن أرحل مع "جيد" .

انفجرت "روني" :

– اللعنة يا "جيد" ! انظر إليها ! إنها كريمة مخفوقة . إذا كنت لا تخاف عليها وأنت تصحبها فمن باب أولى أن تصحبني معها أيضا .

– لقد أخبرتك أنه ليس تحقيقا مصورا .

رفعت "روني" ذقنها في كبرياء ساحر :

– حسنا . . يمكننا أن نحصل على تحقيق . لماذا لا نكمل التحقيق الذي أجريناه في العامين الماضيين ؟

كتبت في الهواء بسبابتها عنوان المقال : "سان ميجيل اليوم" .

سألتها "إيزابيل" :

– هل ذهبت مع "جيد" إلى "سان ميجيل" ؟

– طبعا وإلا مَنْ صوّر التحقيق؟ إنه يضع أكاليل الغار بينما أعض بنان الندم . لولاي لصور "جيد" كل شيء بالعكس .

شهق "جيد" :

– لست جاهلا إلى هذه الدرجة .

– أتقول ذلك ؟ هل تتذكر حرب العصابات في حواري "دترويت" ؟

تظاهرت بالابتعاد وهي تقول :

– سأجري لأحضر أمتعتي . . أنا مستعدة .

صاح "جيد" بحزم :

– لا يا "روني" . لن تأتي .

– هكذا الأمر إذن . . أنت تلقي بي مثل منديل "كلينكس" الورقي . سأعود خلال دقيقة .

سارع "جيد" في أعقابها . وصاح نحو "إيزابيل" :

– انتظريني هنا . سأعود فور أن أعيد تلك الفتاة إلى صوابها .

كتمت "إيزابيل" ابتسامتها وذهبت لتجلس في استرخاء على أريكة، ونظراً لعناد "روني" فإن انتظار الشابة من المتوقع أن يطول . كان ذلك المشهد يظهر "جيد" تحت ضوء يوم جديد .

إنه يعرف بالتأكيد "روني" من زمن طويل ولكن علاقتهما من الواضح أنه لا يشوبها أي شيء مشين . لقد كان مسلكه نحوها ينطوي على نوع من الحنان والتعاطف المشوب بالتسامح والضيق الذي يحسه الأخ الكبير لأخته الصغيرة؛ أحست "إيزابيل" بارتياح غريب .

بعد خمس دقائق انفتح باب المصعد على "روني" وسارعت نحو "إيزابيل" في غضب :

– اللعنة عليه وعلى رأسه العنيد مثل البغل .

ردت عليها "إيزابيل" :

– إنه مثلك . . هل فاز عليك ؟

– مؤقتا . . لقد قررت التراجع حتى أستعد للهجوم القادم .

– وأين ذهب ؟

– إنه يقوم بإجراء بعض المكالمات التليفونية من غرفتي وأنا مكلفة بالسهر عليك .

نهضت "إيزابيل" وابتسمت لها ابتسامة هادئة :

– لا داعي لذلك ولكن يمكنك الاهتمام بأمتعتنا، وقولي لـ"جيد" إنني سأعود خلال بضع ساعات .

صاحت "روني" وهي تسير بجوارها خطوة خطوة :

– انتظري! لن تذهبي إلى أي مكان . يبدو على "جيد" أنه يخشى أن تتحطمي لألف قطعة عند أول هبة ريح على شعرك .

قالت "إيزابيل" وهي شاردة :

– ريح في شعري ؟

تأملت خصلات شعر "روني" وقالت :

– يمكنني أن أعتني بنفسي .

ثم قالت لبواب الفندق بالإسبانية :

– سيارة أجرة من فضلك .

– أين ستذهبين ؟

– ساقوم ببعض المشتريات. أنا لم أحضر سوى ثلاثة أزواج من الأحذية البوت .

قالت لها "روني" وقد اتسعت عيناها دهشة :

– وأنا التي كنت أقول عن نفسي إنني أسافر خفيفة !

نظرت إليها "إيزابيل" نظرة صافية ومشرقة وقالت :

– أما الباقي من ملابسي فليس سوى كريمة مخفوقة .

قالت "روني" وهي تشعر بالخجل :

– لقد كنت قليلة الحياء .

– إلى أقصى حد .

همهمت الفتاة الملائكية وكأنها طفلة مذنبة :

– سامحيني.. إن "جيد" يقول دائما إنني أتعارك مع الناس مثل الشيطان .

– لماذا ؟

– وجهي! لا أحد يأخذني مأخذ الجد . إنني أشبه التماثيل الصغيرة التي تزين علب الصابون التي تقدم هدايا في الكريسماس.. ويجب عليّ باستمرار إثبات أنني غير ذلك .

– لقد قال "جيد" إنك مصورة تليفزيونية ممتازة .

– الأحرى أن تقولي أحسن مصورة .

انفجرت "إيزابيل" ضاحكة؛ لقد كانت تلك الفتاة تعجبها جدا بسبب صراحتها التي تتعدى حدود الحذر، وكذلك مدى ضعفها المخفي خلف مظهرها المتشرد .

– هل تصحبيني؟ أنا لا أعرف "سان جوان" والأكثر من ذلك أنني لم يسبق لي أن قمت بالتسوق في حياتي .

نظرت "روني" نظرة شاملة للثوب الأنيق الذي ترتديه "إيزابيل" التي

شرحت لها :

– إن أثوابي تصنع تفصيلا خصيصا... حسنا.. ليس في "سان ميجيل"؛ لأنني هناك كنت أرتدي الملابس التي تقدمها مؤسسات الخدمة الاجتماعية .

– أنت ؟

– لقد كان أبي يعمل مبشرا دينيا .

– أما أبي فكان يعمل مهربا للأسلحة .

رفعت "روني" ذقنها في حركة تحدّ وكأنها تنتظر أن تصدم "إيزابيل" التي قالت :

– فهمت . أنا لم أقابله أبدا . هل كان مهربا ممتازا ؟

ردت "روني" :

– ليس في الحقيقة .

تقدمت "إيزابيل" نحو سيارة الأجرة التي اصطفت بجوار الرصيف وقالت لـ"روني" :

— هل ستأتين.

تبعتها "روني" بعد تردد بسيط وقالت لها :

– هنا لن تجدي المونديل الذي ترتدينه .

– هذا أحسن.. وماذا عن ملابسك ؟

– ولا ملابسي . لقد اشتريت "الجينز" من محل تصفيات في "كنساس" وربحت السترة في لعب الورق في "بورتوريكو" .

الفصل السادس

بعد أربع ساعات استقبلهما "جيد" في ردهة الفندق وقد تجهم وجهه وصاح :

– يا إلهي! أين كنتما؟ كان– على الأقل– عليكما أن.. أوه يا إله السماوات ...!

مسحت نظراته "إيزابيل" من رأسها إلى قدميها وقد ارتدت حذاء تنس أبيض وبنطلونا من "الچينز" حائل اللون وقميصا أبيض فضفاضا وقال :

– لم تعودي نفس الشخص .

قالت وهي تضع الكيسين الكبيرين على الأرض :

– فعلا.. لم تكن المرأة التي كانت تسكن "جزيرة الشتاء" حقيقية، وهذه هي "إيزابيل" .

التفت "جيد" نحو "روني" :

– هل هذا عملك ؟

– لا.. لقد صحبتها فقط، ولكن هذا التغيير يعجبني. لقد انتهت المرأة الكريمة المخفوقة .

قالت "إيزابيل" في هدوء :

– آسفة إذا كان هذا لا يعجبك .

– أنا لم أقل ذلك. إن ذلك التغيير في الشكل فاجأني وأخذني على حين غرة.. هذا كل ما هناك .

وقعت عيناه على الضفيرة الطويلة التي تارجحت فوق صدرها وقال:

– ما لم تكوني قد قصصت شعرك .

– لقد أوشكت أن أفعل ذلك ولكني وجدت أن الضفيرة يمكن أن تتمشى مع الموضة. هل يمكنني أن آخذ أمتعتي إلى حجرتك ؟

كانت توجه السؤال الأخير إلى "روني" .

– طبعا.. سأذهب إلى الشاطئ .

قال "جيد" :

– أعتقد أن الشواطئ تضايقك .

– لنقل إنني تعودتها. أظن أنك لم تغير رأيك بالنسبة لمصاحبتكما في الرحلة ؟

– كلا .

– إذن إلى اللقاء .

– إلى اللقاء يا "روني" ! سنرحل من هنا بعد ساعة. هل سنقابلك قبل الرحيل ؟

– ربما نعم وربما لا .

انطلقت الفتاة في طريقها :

– هذا من أجل مصلحتك .

– وداعا !

– انتظري دقيقة .

انغلق الباب الزجاجي وراء الملاك الأشقر فسأل :

– ماذا حل بها ؟

– ربما تشعر بالإحباط .

– ليس من عادتها أن تبدي استياءها .

تابعت "إيزابيل" الفتاة بعينيها وهي تبتعد على الرصيف ثم قالت:

– إنها تعجبني كثيرا، وأعتقد أنها تعجبك أيضا .

– فعلا.. إنها تعمل معي منذ ست سنوات. لقد التقينا في "نيكارجوا" . كانت قد جاءت تعرض عليّ فيلما عن هجوم للمتمردين مقابل وظيفة وقلت لها: لا .

دخلا مقصورة المصعد وضغط "جيد" على زر فانغلق مصراعا الباب وبدأت المقصورة تصعد .

– لقد قلت لها: لا.. لم تكن تجاوزت الثامنة عشرة وقتها، وكنت أنا وفريقي نتردد على أماكن غير مأمونة .

ارتجفت "إيزابيل" داخليا أمام هذا التلميح إلى خطورة الأماكن

ولكنها هذه المرة لن تعرض حياة "جيد" للخطر في "سان ميجيل" وقالت :

– وهل غيرت رأيك ؟

– لقد استطاعت أن تصور أحداثا مثيرة على الجبهة وتلقت رصاصة في ذراعها، في نفس الوقت حضرت لتسلمني الشريط وسط العشاء وهي تنزف دما ثم أغمي عليها أمام مائدتي بالضبط .

– ومنحتها الوظيفة .

– لقد اضطررت لذلك .. لقد هددتني بأن تفعل نفس الشيء في كل مكان أذهب إليه .. ففضلت أن أسهر عليها .

انفجرت "إيزابيل" ضاحكة فقال :

– يبدو أنك تستمتعين بذلك .

– لقد اكتشفت جانبا آخر من شخصيتك .. أكثر رقة . لقد كنت حتى الآن الوحيدة الهشة الضعيفة !

وصلا إلى عتبة الطابق . رد عليها :

– وأنا الشرير والقاسي والنذل بدون قلب .

– أنا لم أقل هذا أبدا . أنت قاس وبلا رحمة فعلا ولكنك في نفس الوقت عادل وبلا قسوة .. ولكن ماذا بك ؟

انتزع نفسه من تأملها :

– هذا "الجينز" يعجبني، و"إيزابيل" الجديدة أيضا .

أحست بخديها يتوردان . فتح "جيد" باب الحجرة وتنحى جانبا ليدعها تدخل ثم تبعها إلى الداخل . سألته :

– هل يمكنك أن تضع حقيبة ملابسي على السرير ؟ ولن أتأخر سوى دقائق بعدها نستطيع الرحيل .

قال معترضا :

– لا داعي للاستعجال .

أخرجت "إيزابيل" بنطلوني "جينز" آخرين من حقيبة ورقية ومعهما بلوزة ثم قامت لتضعها في حقيبة ملابسها . سألها :

– هل أخبرت "روني" أنك تريدين .. ؟

حبست أنفاسها؛ لأنها أحست به قريبا منها جدا ثم قال بصوت أجش ومتقطع :

– لسنا في عجلة من أمرنا فإن ساعة أو ساعتي تأخير لن تغيرا من الأمر شيئا . أوه إن هذا "الجينز" يثيرني جدا .

قالت له وهي تتجاهل تلميحاته :

– هل أنت واثق بأننا لن نتأخر وأن أمامنا فسحة من الوقت ؟

قال في نفسه : كيف يستطيع التخلص من سيطرة هذه المرأة عليه؟

اخترق رنين التليفون أذنيه فأيقظه من أحلامه . قال في غيظ :

– اللعنة! هذا غير معقول! إن هذا مثل المفاجآت المكررة في أفلام الإثارة من الدرجة الثانية .

سألته :

– هل يجب علينا أن نرد ؟

– نعم .. فقد تكون "روني" هي الطالبة .. إنها ملكة الإزعاج !

ذهب ليرفع سماعة التليفون وهو يواصل :

– نعم، إن لديها مصلحة في أن تزعجنا .. لابد أن هناك سببا مهمًّا ...

رفع السماعة وصاح :

– لا نستطيع إذن أن نبقى فترة طويلة ؟ حسنا سنصل حالا .

وضع السماعة مكانها في وحشية وقال :

– احزمي أمتعتك .. لابد من الرحيل .

– ولكنك قلت : إننا ...

– نعم .. ولكن علينا الانتظار حتى نصبح على ظهر اليخت .. لقد كان ذلك "جيمس جارسيا" الموظف المسؤول بوزارة الخارجية الذي سبق أن اتصلت به، وعلينا أن نصل إلى السفارة قبل الساعة الخامسة بعد الظهر حيث سيقوم موظف هناك بتجديد جواز سفرك وسنمر عليه في طريقنا إلى الميناء .

فتح الباب وقال :

– استدعي خادم الدور بعد عشر دقائق .

– وأين أنت ذاهب ؟

نظر إليها نظرة ملتهبة ثم قال :

– سانتظرك أسفل في البهو . . إنني لم أعد أتحمل وجودي معك هنا أكثر من ذلك وإلا حدث ما لا تحمد عقباه .

ثم خرج وأغلق الباب خلفه .

*****

بعد أربع ساعات كانا يبحران على بعد مائة ميل من الساحل على سطح اليخت المسمى "المغامرة السعيدة" .

قالت "إيزابيل" وهي حالمة :

– أنا واثقة بأن الحظ معنا . . إن اسم هذا اليخت "المغامرة السعيدة" هو فال حسن .

– يدهشني أن أعرف أن "روني" اهتمت بالاسم عندما استاجرته . إنها من النوع الذي يهتم بالمظهر العملي للأشياء .

– لست متاكدة من ذلك مثلك . إنني أجد فيها خليطا غريبا من . .

توقف المحرك فسألت :

– ماذا حدث ؟

أمسك "جيد" بها من رسغها ثم أنزلها بسرعة إلى الكبائن عبر سلم صغير :

– آسف لأنني سازعج روحك المتفائلة ولكني لا أستطيع أن أنتظر أكثر من هذا . لقد انتظرت حتى نصبح وسط المحيط حتى لا يقاطعنا أحد . أريد أن أقضي وقتا سعيدا مع المرأة الجديدة التي أصبحت .

– إنني أحترم وعدي لك بأن أطيعك في كل ما تريد .

– لا أريد منك أن تطيعيني بل تبادليني عاطفة بمثلها . أنت لم تعودي المرأة التي تطيع بإشارة من الإصبع أو غمزة من العين .

كانت تحس بالعذاب الشديد من علاقتها به أو بزوج أمه القائمة على

العلاقة بين المملوكة وسيدها .

ردت عليه في ألم شديد :

– ولكني لم أعرف أي نوع آخر من تلك العلاقة .

انطلق صوت عطسة . لم يعطس أي منهما ؛ نظرت "إيزابيل" إلى "جيد" الذي اقترب من باب المقصورة بخطوات صامتة . وضع إصبعه على شفتيه ليسكتها ثم اقترب من مقبض الباب عندما فتحه فوجئ بصوت يقول :

– اللعنة . . لقد أفسدت المفاجأة .

أحست "إيزابيل" بالارتياح عندما سمعت صوت "روني" في حين كان "جيد" على العكس يسب ويلعن وهو يصرخ فيها :

– اخرجي من مخبئك .

ظهرت "روني" وهي تتعثر وقالت :

– لماذا يعطس الإنسان دائما في اللحظة الحرجة ؟ لابد أن لذلك سببا نفسيا .

قال لها "جيد" بعنف :

– اشرحي سبب ما فعلته !

– لقد كنت أشعر بالملل . . لقد أردت الحضور ؛ أنت معرض أن تحتاج إليّ . . من سيعنى باليخت عندما تكون على اليابسة ؟

– ولهذا اختبات .

– نعم لم أكن أظن أنك ستاتي لتنام هنا بهذه السرعة .

كشرت ملامحها عندما التقت نظراتها بنظرات "إيزابيل" وقالت :

– آسفة لمقاطعتي . لقد كنت أظن حقا أن الأمر يتعلق برحلة عمل . . أنت لست على الإطلاق النوع الذي يفضله وسيصيح فيك مثلما يفعل معي .

رد "جيد" بصوت بارد كالثلج :

– أنا لا أصرخ فيها ولا فيك .

– حسنا . . لنقل إنك تزمجر .

نظرت لـ"إيزابيل" وقالت لها :

– يستحسن أن تضعي شيئا ثقيلا؛ لأن الجو بدأ يزداد برودة .

نفذت "إيزابيل" ما طلبته الفتاة وهي تحاول أن تكتم ضحكتها وقالت لها :

– شكرا على النصيحة .

اعترفت لهما "روني" :

– لقد تظاهرت بالعطس.. إن الجدار بين المقصورتين رفيع جدا ولا يكتم الصوت لدرجة أنني سمعت صوت تنفسكما. كان من الواجب أن أسقط أي شيء لأحدث ضجة ولكني خشيت أن يقفز "جيد" فوقي ويوجه لي ركلة كاراتيه ساحقة .

قال لها "جيد" :

– لقد أفلت منها بأعجوبة :

تجاهلته "روني" ووجهت الحديث لـ"إيزابيل" :

– كنت سأظل هادئة لو كنتما هادئين .

– هادئين ؟

– نعم لقد كنتما تتحدثان بصوت عال وأنا أكره التنصت على الأبواب المغلقة .

قالت لها "إيزابيل" بحركة مسرحية :

– شكرا.. إنني أقدر ذلك .

قطبت "روني" جبينها .

تدخل "جيد" في الحديث وقال لـ"إيزابيل" :

– لديّ فكرة أفضل.. ما رأيك أن نلقي بها في البحر ؟

ردت عليه الفتاة :

– سأتبعكما سباحة حتى الشاطئ .

نظر إليها "جيد" نظرة ساخطة ثم غادر المقصورة. قالت له "روني" قبل أن يرحل :

– لدي فكرة أفضل وهي أن أرتدي بذلة الإنقاذ. ألازلت حانقا علي ؟

– كلا.. وإنما مندهش .

قالت لها "إيزابيل" :

– هل يعاملك هكذا باستمرار ؟

– ألم أقل لك: إنه يعاملك بخلاف الآخرين. إنه يبدو قلقا وحاميا ولست أدري ماذا أيضا.. على أية حال أعدك أنني لن أضايقك بعد الآن .

تأثرت "إيزابيل" من لهجة الفتاة وقالت :

– أعرف ذلك.. أنا واثقة بأن وجودك سينتهي بأن يسعدنا عندما نتأقلم على وجودك .

أشرق وجه الفتاة وقالت لها :

– أحقا ما تقولين؟ أرجو ألا تكوني تقولين ذلك بدافع الأدب ؟

ألقت نظرة على الباب الذي اختفى خلفه "جيد" ثم قالت :

– هذه المرة إنه ثائر ضدي فعلا.. ربما كان عليّ أن أحاول تهدئته قليلا.

قالت لها "إيزابيل" :

– دعيني أفعل ذلك. في رأيي من مصلحتك ألا تظهري لفترة محددة .

– هل تظنين ذلك؟ حسنا جدا.. ما رأيك في أن أعد العشاء ؟

– هل تطهين جيدا ؟

اعترفت في مرح :

– أنا. لا شيء ! ولكن أعتقد أن كل الناس لابد أن يعرفوا كيف تُعَدّ العجة. هل سيعترف "جيد" بهذه الحركة السلمية .

قبل أن تصعد الفتاة إلى السطح أوشكت "إيزابيل" أن تقول لها إن أي عسر هضم نتيجة العجة سوف يزيد من غضبه، ولكنها امتنعت .

تاهت نظرات "جيد" بعيدا وهو واقف مستندا على درابزين السطح وقد تصلب جسده بشدة.

قالت له "إيزابيل" :

– إنها متضايقة جدا؛ لأنها أغضبتك .

– ولكن هذا لن يمنعها من تكرار الأمر في أقرب فرصة وهذا لن يساعدك

أنت بالذات على الإطلاق .

– إن لديها استعدادا لأن تتأقلم مع أي وضع .

– أنت تتحدثين عن أمر لك حرية الاختيار فيه . إما أن أعلنها أنني لا أريدها معنا وإما سيكون هناك شاهد صامت مقيم في المقصورة المجاورة . أنا لا أريد تعريضك لهذا . . لماذا تبتسمين ؟

– أنت في أعماقك فارس نبيل .

فرك "جيد" رقبته وهو يفكر :

– لا . . أنا غاضب منذ أن قابلتك .

صححت له معلوماته :

– منذ أن قابلت "زوجة الشتاء" ولكن كيف يمكن إقناعك أنني لست تلك المرأة ؟

رد عليها :

– أمامنا أربعة أيام لندرس المشكلة .

– حسنا . . سنستخدم هذه الأيام الأربعة من أجل أن نزداد تعارفا وسترى أنني لم أعد . .

انفجر فيها :

– ألا تفهمين إذن شيئا؟ أنا لا أريد أن أعرفك . مادمت امرأة عادية في حياتي أستطيع أن . . .

قاطعته حتى لا يجتاحها الحزن الذي يسببه لها :

– أنا آسفة . في هذه الحالة فكر في اقتراح "روني" .

قبضت يدا "جيد" بعنف على درابزين اليخت :

– ولكن كفي عن ترديد أنك آسفة! ولماذا تأسفين؟ أنت لم تفعلي ما يستحق الأسف .

– إنني أجد صعوبة في التخلي عن عاداتي . عندما يتحول أي شيء إلى الناحية السيئة أحس بأنني دائما المسؤولة .

– هل تبكين ؟

– ولكن . . لا . .

– بل تبكين .

أجبرها على مواجهته وتعمق بنظراته في حدقتي عينيها اللامعتين من الدموع . لمست يده خدها رغما عنه بينما مختلف المشاعر تتوالى على وجهه من الحنان– بالذات– وهو ما حدث له مرتين في الكوخ .

كانت "إيزابيل" تعلم أنه يقاوم بكل قواه تلك المشاعر الطيبة ولكنها كانت موجودة رغما عنه . ظلت ثابتة في مكانها وودت لو ظلت هكذا بقية العمر .

– حسنا . . حسنا . . لا تبكي . . مادام الأمر هكذا خلال أربعة الأيام القادمة سأحاول أن أتعلم من هي المرأة التي أصبحتها وأن تتحمل هذا النمط من الرجال الذي لا يمت إلى الفروسية النبيلة بصلة، ولكن هذا فقط حتى "سان ميجيل" وإلى أن نتخلص من "روني" . . هل هذا يوافقك ؟

أشرق وجه "إيزابيل" :

– نعم . . ولكن أين سانام ؟

– معي . . إن هذا لم يتغير . . هل لديك اعتراض ؟

– لا . . كل ما هناك أنني تساءلت أنني أستطيع النوم فوق سطح اليخت .

– لا مجال للمناقشة في ذلك .

عندما هبط "جيد" إلى المقصورة حوالي منتصف الليل لم تكن "إيزابيل" قد نامت على الإطلاق . رأته على مستوى شعاع متسلل من القمر وهو يبدل ملابسه وعادت الصور الخيالية التي كانت تطاردها بقوة إليها من جديد .

همس في أذنها :

– لقد كنت آملا أن تكوني نائمة .

– وكيف عرفت أنني لست نائمة ؟

– إنني أحس بنظراتك مركزة عليّ وسط الظلام .

– أرجو المعذرة فإنني لم أستطع النوم .

www.elromancia.com

ظل فترة طويلة متجمدا في مكانه وصامتا. قالت له :

– إنني أجد صعوبة في أن أتعود النوم مع أحد .

– وما الغرابة في ذلك ؟

– من الصعب أن ينام الإنسان وهو متوتر.

أكمل لها في لهجة مريرة :

– ولا يشعر بالثقة ..

انغلق باب المقصورة الثانية ودخلتها "روني" وهي تصفر بفمها. سب "جيد" ولعن فردت عليه من الجانب الآخر من الجدار الخفيف:

– ها نحن مرة ثانية.. لقد غضبت مرة أخرى .

– إنني أشعر بالتعب. عليك اللعنة !

أحست "إيزابيل" بالأسف نحوه لشدة تعبه. سألته :

– ألا يمكن أن تنام وتتجاهلها ؟

– طبعا لا.. إنها كالكابوس .

– ما عليك إلا أن تسترخي وسيغلبك النعاس من شدة التعب.. ثم إنها لزمت الصمت .

– أعرف هذا ...

مرت الدقائق و"إيزابيل" تحس بانفاسه التي بدأت تنتظم. لم تحاول الحركة رغم ما كان يجتاحها من مشاعر أوشكت أن تورثها الجنون .

ومع ذلك بدأت تسترخي هي الأخرى. كانت تريد أن تتقلب ولكنها خشيت أن توقظه. إن عليها أن تتحمل كل العذاب حتى تفي بوعدها نحوه بألا تزعجه وألا تغضبه إلى أن تصل إلى جزيرة "سان ميجيل" . كان هذا هو اتفاقهما وهي حريصة على الوفاء بنصيبها من هذا الاتفاق.

سألها في صوت خافت :

– هل نمت ؟

كيف يمكنها أن تنام بجوار قنبلة موقوتة ؟

– استرخي يا "إيزابيل" .

كانت تحب نغمات صوته وهو ينادي اسمها.

تثاءبت "إيزابيل" ووجدت وهي مندهشة أنها بدأت تستسلم للنعاس..

من الواضح أنه يلزمها ساعات طويلة حتى تسترخي تماما وتستطيع أن تنام ملء الجفون .

www.elrewaya.com

الفصل السابع

سألته "إيزابيل" :

– ماذا تكتب ؟

رفع "جيد" عينيه عن الكمبيوتر المحمول والذي وضعه على ركبتيه المتشابكتين. رد عليها :

– لقد تساءلت كم من الوقت يلزمك حتى يثور فضولك. لقد مرت ثلاثة أيام وانت تنظرين إليّ دون أن تقولي كلمة واحدة .

احتجت بشدة :

– ولكننا تكلمنا .

نسيت للحظات موضوع الحديث. كانت أشعة الشمس تسطع وتنعكس على شعر "جيد" الفضي، وكانت عيناه في زرقة عميقة أكثر من زرقة المحيط .

كانت يداه القويتان تتحركان في رشاقة وبراعة فوق مفاتيح الكمبيوتر.، كما هي بارعة في أمور كثيرة .

– لقد ظننت أنك ستقوله من نفسك لي لو أردت مني أن أعرفه .

– دائما متمسكة بنفس الأدب .

– إن هذا شيء أفعله رغما عني... لقد تربيت تربية رفيعة. لقد كان أبي بالتبني يظن أن الأدب والتهذيب يقربانا من الأخلاق السماوية .

– والدك بالتبني ؟

إنها لن ترتكب أبدا نفس الغلطة بأن تذكر "جون" والآن استيقظت روح الفضول عند "جيد" لما لم تجب على سؤاله.

تابع حديثه :

– لقد علمت من "روني" أن والدك كان مبشرا دينيا هل كان في الحقيقة هو والدك بالتبني ؟

– نعم .

– دائما جيدة الاتصالات !

أحست بالارتياح الشديد عندما غير موضوع الحديث .

– في أيامنا هذه يعتبر التهذيب شيئاً شاذاً جدا، وأنت أيضا شاذة.. كيف جرؤت على أن تسأليني ماذا أكتب؟ إنه سؤال شخصي جدا يتعارض مع مبادئ الأدب والتهذيب ؟

– هل تسخر مني ؟

– ما رأيك؟ هل أسخر منك ؟

رفعت لأعلى خصلة من شعرها كانت الريح قد أسقطتها على جبينها . ردت عليه :

– نعم.. ولكن بطريقة لطيفة.. أنت تغيظني .

– قليلا . أنت حيوان صغير جاد جدا ولكن لماذا تسألينني هذا السؤال الآن ؟

– إنه.. حسنا.. لديّ إحساس بأنني أعرفك أحسن. لقد كنت لطيفا جدا معي منذ رحيلنا من "سان چوان" .

– ذو كياسة.. هذا ما تقصدينه ؟

– أنا لم أقل هذا.

قطب حاجبيه ونظر إليها وكأنه لن يرد ثم قال :

– إنني أكتب كتابا. هل تجهلين أن كل صحفي يتصور أنه يحمل في ذهنه كتاب القرن ؟

– سيرة ذاتية ؟

– لا.. إنه الخيال .

– أي نوع من الخيال ؟

– يا إلهي! كيف حدث هذا: تطرحين سؤالين في وقت واحد.. حسنا. إنها رواية تاريخية.

كان رد فعل "إيزابيل" قد دفعه إلى القهقهة :

– ألم تتوقعي مني ذلك ؟

– لقد ظننت أنك مهتم فقط بزمننا .

– جميعنا في حاجة إلى الهروب. أنا لا أقول: إن الناس ليس لديهم

مشكلة في الوقت ولكن الحياة كانت اكثر بساطة، ومن حين لآخر أجد نفسي في حاجة إلى الابتعاد عن مشاكلنا المعاصرة. هل أرضيت فضولك ؟

– نعم.. شكرا .

كانت تكذب عليه.. كانت صلتهما الحميمة تزداد قوة وانجذابها نحوه يتعدى الحدود. إنها لم تعد تتحدث مع نفس "جيد كوربن" الذي عرفته من يومين فقط. لقد كان يتجاهلها في ساعات العمل، ولكن بعد ذلك كان يعد لها القهوة وهو يحكي لها عن مغامراته ويطرح عليها أسئلة حول دراساتها وأفكارها وهو في حالة طبيعية للغاية .

وكان يعاملها بطريقة أفلاطونية كما يعامل "روني" وفي الليل يكتفي بان ينظر إليها نظرات أخوية حانية وقد ذهبت عنه كل آثار الغضب والضيق.

قال لها وقد تجهم وجهه :

– مرة ثانية تقولين شكرا؟ لقد اعتقدت أننا انتهينا من ذلك .

– إنني أستخدمها رغما عني.. من الصعب التخلص من عادات رسخت من أيام الطفولة .

استندت على درابزين اليخت وسألته :

– لماذا غيرت مسلكك نحوي ؟

– هل ترين أنني تغيرت؟ إنني فقط أحاول الوفاء بوعدي .

– هل الوعود مهمة لهذه الدرجة عندك ؟

هز رأسه علامة الإيجاب :

– لقد رأيت في حياتي العديد من رجال السياسة والدبلوماسيين ورؤساء الدول لم يحترموا الوعود التي تهم دولا باكملها إلا فقط من أجل طموحاتهم. إن حبي للتاريخ يرجع ربما من هنا. نحن في حاجة إلى ميثاق شرف مثل ذلك الذي كان ساريا أيام الملك "أرثر".

– لقد ظننت أنني فهمت أن الفرسان كانوا دائما لا يطيعونه .

– ربما ، ولكن الحدود كانت محددة بوضوح. لا يجب الوقوع في الرمال المتحركة .

– لقد كنت على حق عندما قلت : إنك تتمتع بروح الفارس النبيل.

– ربما مثل "لانسلوت".. إنه كان يخرق القواعد بسهولة عندما يريد الحصول على شيء .

– على "جينيفر" ؟

– نعم.. من أجل المجد وقطعة من الجاتوه. لقد كان أكثر مادية من "برسيفال" مثلا .

– يبدو عليك أنك تعرفه .

– إن حقيقة كوني كبرت مع "زوجة الشتاء" قد أثارت فضولي، وقد اجتاحتني رغبة في أن أعرف من أين أنت؟ ومن هي ؟

– لقد أتت من المحيط! استقرت نظراته على "إيزابيل" .

– ولماذا تبدو خائفة لهذه الدرجة ؟

– إنها ليست خائفة.. فقط غير آمنة وعصبية، وهي تحس بانها قادرة على مواجهة حياتها... ولديّ دائما إحساس بان زوجها في ذلك القصر فوق التل لديه زوجة يمكنه الاعتماد عليها .

قال لها بصوت خشن :

– أنت في وضع يسمح لك بان تعرفيها جيدا .

قالت "إيزابيل" وهي آسفة :

– نعم.. لقد كان لديّ الوقت الكافي لدراستها والتفكير فيها كل تلك السنوات .

استقرت نظراتها على "روني" الواقفة عند السور على الجانب الآخر من اليخت وقالت :

– لقد مرت ثلاث ساعات ولم تتحرك من مكانها ربما يجب عليّ أن أذهب للتخفيف عنها .

– لا تفعلي ذلك بوجه خاص. لو أن تلك الفتاة الجامحة وجدت نفسها بلا فاعلية فإنها تخرج الكاميرا الخاصة بها وتودع الوساوس ! لقد سبق أن رأيتها من قبل وقد استعدت بيديها وقدميها وكيانها كله لتصوير الدرافيل التي تتبع اليخت في رحلته .

– الحق معك .

كانت "إيزابيل" قد اكتشفت أن الطاقة الزائدة عند "روني" يمكن أن تكون متعبة ومثيرة ومحفزة في آن واحد : لقد أمسكت بيدها كل شيء في اليخت من طهي وأعمال منزلية وتدريب وملاحة لليخت .

سألته "إيزابيل" :

– من كنت تتوقع أن تجده في المقصورة المجاورة غير "روني" ؟

هز "جيد" كتفيه :

– إن صحفيي التحقيقات والتحريات ممن يخلقون دائما أعداء لهم.. ولقد تلقيت تهديدات بالقتل .

رددت وهي مبهوتة :

– تهديدات بالقتل ؟

– ولماذا دهشت هكذا؟ أنت تعرفين "مورينو" .

– نعم. ولكني كنت أعتقد أنه الوحيد . لماذا لا تستخدم حراسا شخصيين ؟

– إنهم يضايقونني .

اجتاحتها رغبة في أن تضربه وهي تقول :

– الحياة غالية فلماذا تخاطر بها ؟

لم تعد قادرة على مواصلة الأسئلة فسكتت .

– ولكنك غاضبة.. لماذا تغضبين؟ هذه أول مرة أراك تغضبين إلى هذه الدرجة ؟

– لست غاضبة . ولماذا أغضب من شخص من الغباء لدرجة أنه يتنزه في هدوء والناس يريدون قتله ؟

قفزت واقفة على قدميها وصاحت :

– وكف عن الابتسام .

عبرت الجسر أعلى اليخت ويداها ترتجفان واستندت على الدرابزين.. تبعها "جيد" ولكنها رفضت أن تنظر إليه .

– اتركني !

– لماذا؟ إن رد فعلك يسحرني ويفتنني .

– لا أريد منك أن تحدق إليّ .

– كل له دوره . حاليا أنا لا أعرف عنك شيئا بخلاف أنك تحبين "البترا" وتكرهين "الخرشوف" . حدثيني يا "إيزابيل" . كيف تريدين مني أن أتعرف على المرأة الجديدة التي هي أنت الآن دون أن تثقي بي ؟!

كانت تعذبها الحاجة الماسة لأن تنفتح عليه حتى لا تشعر بأنها وحيدة . فتحت فمها ثم أغلقته ثم قالت بصوت مرتجف :

– فيما بعد عندما نصل إلى "سان ميجيل" .

أحست بأن "جيد" يتخشب وكان صوته باترا :

– لقد بلغ السيل الزبى.. ما الفرق في يوم واحد وماذا يمكن أن يغير من الأمر ؟

لم يطرف لها رمش فقال :

– حسنا.. لابد أن أظل على موقفي أليس كذلك؟

بعد هذه الكلمات استدار إلى الكمبيوتر المحمول .

أغمضت "إيزابيل" عينيها وأخذت نفسا عميقا، لقد جرحته عندما علمت أنه يخاطر بحياته . انفجر شيء ما بداخلها؛ لم تكن تصدق أبدا أنها قادرة على تعذيبه ولكنها تستطيع أن تتعرف على الألم لكثرة ما تعرضت له وأحسته .

كانت تعلم أنها ظالمة ولكنها كانت خائفة جدا وحريصة للغاية بحيث لا تستطيع الانفتاح عليه . ما إن يصلا إلى "سان ميجيل" إلا وستستطيع وقتها أن تتكلم معه . نعم كل شيء سيكون على خير عند وصولهما إلى هناك .

*****

ظل "جيد" ملتزما الصمت طوال فترة بعد الظهر ، وفي نهاية العشاء تأملته "روني" نفسها وهي مذهولة، وما إن انتهت الوجبة حتى خرج من قاعة الطعام دون أن يقول كلمة واحدة .نهضت "روني" لترفع المائدة وقالت

وهي ممتعضة :

– ولكن ما الذي فعلته به ؟

– لا شيء .

– قولي هذا لغيري فانا أعرفه جيدا .

– إنه يظن أنني لا أثق به .

– قولي له إنه مخطئ .

رفعت "إيزابيل" أدوات مائدتها دون أن تجيب .

صاحت "روني" وهي غير مصدقة :

– ألا تثقين به؟ هل أنت مخبولة؟ إن "جيد" رجل ثابت مثل جبل "طارق" . لقد ظننت أنك من الذكاء بحيث تعرفين أن جانبه الشرير ليس سوى واجهة مزيفة .

أوصلت "إيزابيل" الكهرباء لجهاز إعداد القهوة وقالت :

– أنا سعيدة لأنك تثقين به .

– هل تمزحين؟ لقد أنقذ حياتي مرات عديدة، إنه يغضب ويثور بسرعة، ولكنك تجدينه دائما في المواقف الصعبة مستعدا للتضحية بحياته.

– ثم ماذا ؟

قالت "روني" وهي مغتاظة :

– ألا يكفيك هذا ؟

حدجت "إيزابيل" بنظرة صاروخية :

– لقد جرحته فافعلي شيئا .

– وماذا تقترحين ؟

– وكيف لي أن أعرف؟ أنت سبب الخسائر وعليك أن تعوضيها!

أحست "إيزابيل" بأنها هوجمت من ثور هائج فقالت :

– من يسمعك يا "روني" يقول إن الأمر سهل .

– إنه فعلا سهل : عندما تكسرين شيئا تصلحينه .

– وماذا ستفعلين إذا لم أنجح في إصلاح الأمور ؟

كانت تحدج "روني" في فضول.. والتي أشاحت بعينيها بعيدا عنها

وقالت ترد :

– أنا أحبك كثيرا ولكن مر وقت طويل وأنا أشكل فريقا مع "جيد" .

كان من المستحيل تجاهل التهديد المستتر في كلام "روني" ؛ بدأت ابتسامة "إيزابيل" تختفي ببطء؛ لقد أظهرت "روني" إخلاصا عاطفيا نحو "جيد" ، وهي عاطفة عنيفة مثل بقية عواطفها المتأججة .

تساءلت عن أي أحداث قوت هذا الإخلاص وعززته؟ بدأت "روني" تغسل المواعين في عصبية وقالت لـ "إيزابيل" :

– هيا اذهبي أنت وسأنتهي من ذلك بعد لحظات. بعدها سأذهب على جسر اليخت بالكاميرا الخاصة بي .

– هل ستعملين في الظلام ؟

تجاهلت "روني" السؤال وواصلت :

– وهذا قد يستغرق مني طوال الليل. هل تفهمينني ؟

– كل الفهم .

– سوي الأمور قدر المستطاع .

– هل تعتقدين أن أحاول مغازلته حتى يهدأ ؟

– ولم لا .. إن الغرام غير مهم ولكنه بالتأكيد يسري عن الرجال.

قطبت الفتاة حاجبيها وقالت :

– أعرف أن وجودي قد أحرج "جيد" وهذا غريب عليه. عادة لا يجد أي عقدة بالنسبة للعلاقات العاطفية وأكثر من مرة ...

قاطعتها "إيزابيل" :

– أعتقد أن "جيد" لا يحب أن تقصي عليّ ذلك .

– ربما لكني قلته لك. إنه يتصرف تصرفا غريبا معنا .

همهمت "إيزابيل" :

– أكثر غرابة مما تتصورين .

– هل ستسوّين الأمور ؟

صاحت "إيزابيل" ساخطة :

– كُفّي عن الإلحاح عليّ لدرجة الاضطهاد !

ثم أضافت في رقة عندما أدركت مدى قلق الفتاة :

– لا تقلقي فسأعمل على إنجاح الأمر .

*****

كان "جيد" واقفا وقد اتسع ما بين ساقيه أمام عجلة الدفة وكان ثابتا ومتجمدا مثل جبل الثلج الذي لا يمكن الاقتراب منه .

ذهبت "إيزابيل" بعد تردد لتقف بالقرب منه وقالت :

– أنت لا تحب أن أقول لك إنني آسفة ولكني إذا لم أقلها فإن "روني" ستلقي بي في البحر .

لم يجب . فقالت :

– قل أي شيء .. ازجرني ... هيا زمجر !

– لست حيوانا وأنا لا أزمجر .

وضعت يدها على ذراعه التي تقلصت عضلاتها عندما لمستها وقالت :

– لقد أخبرتني "روني" بضرورة مصالحتك .

قال لها بصوت بلا تعبير :

– وماذا اقترحت عليك ؟

– أن نتبادل الغزل .

استدار نحوها وتحت ضوء القمر كانت عيناه الصافيتان ترسلان وميضا فضيا وقال :

– أنا لا أجد الأمر يستحق المزاح .

– أما أنا فأراه كذلك .. إنها تعتقد أن الغرام مثل قرص الأسبرين .

– إنه علاج استخدمته هذه الأيام الأخيرة جيدا، ولديّ إحساس بأنني أنزف حتى الموت وأنت بجواري .

– أحقا ما تقوله ؟ أنا لم أدرك ذلك .

صاح هادرا :

– لأنني قطعت على نفسي وعدا لك . هيا ارفعي يدك عن ذراعي .

أخذت "إيزابيل" تتحدث بصوت سريع :

– كان من الواجب عليك أن تخبرني بذلك . لقد كنت أظن أنك لست معي وإنما في مكان آخر .. لقد وقعنا اتفاقا وإذا أردت ...

– أن أخالف هذا الاتفاق .؟ . لا .

رفع يدها الموضوعة على ذراعه ووضعها فوق الدرابزين قائلا :

– إن ذلك لن يكفيني .

حاولت الشابة أن تكتم الأمل الذي تولد عندها . تابع كلامه :

– لقد قلت لك : إنني لا أريد أن أعرفك أكثر وإن ذلك يضايقني .

مات الأمل فجأة بالسرعة التي ولد بها وهي تقول :

– أنت تقصد أن تقول : إن ذلك يضايق نظريتك عن "زوجة الشتاء" .

– كُفّي عن الحديث بدلا مني .

– ومع ذلك هذا ما قصدت قوله .

– لست أدري شيئا من ذلك . منذ أن عرفتك لم أستطع أن أفكر بوضوح، ولن يتحسن الأمر إذا حاولت أن أهدهد الأمل الذي يصطدم في كل مرة ترفعين فيها الجدار بيننا .

– ماذا تريد؟ ما الذي يشعرك بالارتياح والخلاص ؟

– إجابات .

همست :

– لا أستطيع الحديث عن "سان ميجيل" ... ليس هذا من حقي .

– في هذه الحالة حدثيني عن "زوجة الشتاء" .

– أنا لا أحب ذلك أيضا .

– ولكني أحتاج إلى ذلك .

– لماذا؟ إن هذا ينتمي إلى الماضي .

– لأنني أحتاج إلى أن أعرفك .

– لقد سبق وأخبرتك أنني لم أعد امرأة الجزيرة .

– أنت لم تعيشي كل تلك السنوات في الفراغ .

– هل تعتقد ذلك ؟

سكتت بعد أن أدركت أنها – بإخفاء كل ذكرى عن تلك الفترة –

تتصرف مرة أخرى بظلم نحوه. قالت :

– ماذا تريد أن تعرف ؟

– كل عواطفك وأفعالك وأفكارك وقتها .

– في رأيي أنك تحاول أن تفهم ثانية "زوجة الشتاء"، أنت تعرف والدك وعليه تستطيع أن تفهم حياتي .

– لا.. لست أفهم. قصّي عليّ .

عقدت "إيزابيل" ذراعيها حول صدرها حتى لا ترتجف وقالت :

– هذا أمر صعب.. لقد كان عليّ أن أتعلم، ولتعلم أنني لم أكن رقيقة ولكن بالنسبة لـ"آرنولد" كانت الزوجة رقيقة، وكان علي إذن أن أصبح مثلها. لقد تعلمت كيف أمشي وأتحرك وألا أتحدث إلا عندما يوجه إليّ الحديث وأن أستجيب لكل رغباته دون اعتراض .

– وكذلك رغبات "بيتي" .. أليس كذلك ؟

– بلى.. لقد كانت الذراع اليمنى لـ"آرنولد" ولو خالفتها أكون قد خالفت زوجي وتعاقبني بنفس العقوبات .

– هل أمرك بالقيام بأعمال جسدية شاقة ؟

– نعم من ناحية "آرنولد" أما من ناحية "بيتي" فقد وجدت وسائلها الخاصة لعقابي ولإخضاعي .

انغرست أظافر "إيزابيل" في ذراعيها وهي تقول :

– لقد فضلت لو أنني ضربت.. لقد كانت تضعني في حالة لا تطاق .

سألها بصوت منخفض :

– ولكن لماذا بقيت ؟

– لقد كنت مضطرة.. وفي مثل هذه الحالة يقبل الإنسان أي شيء .

أحست بحرقة في عينيها ووجدت صعوبة في منع دموعها :

– أتعشم أن يكفيك هذا.. إنني أريد أن أنسى كل شيء .

اضطرب "جيد" وأراد بكل قواه أن يريحها فقال :

– ماذا سأصنع بك ؟

ودت لو أنه صدقها وحاول التسرية عنها بقوة .

لم يسبق لها منذ طفولتها أن أحست بأن لها قيمة عند أحد مثلما تحس معه. كررت عليه :

– هل كفاك هذا الذي سمعته ؟

– لا.. كيف استطعت أن تبقي على قيد الحياة ؟

كانت الكلمات تخرج الآن بسهولة وكان "جيد" بدأ يستوعب عذاب تلك السنوات الطويلة .

– لقد استطعت التحمل لأنني عشت في بوتقة وأخذت أواصل الدراسة وأحصل على شيء إيجابي من كل هزيمة وانكسار .

اقتربت منه أكثر وكأنها تحتمي به من ذكرياتها وقالت :

– كان أهم شيء عندي هو ألا أستسلم للفشل. فمن الخضوع تعلمت الصبر ومن القبح عرفت قيمة الجمال ومن القسوة ...

– لحظة واحدة .

أحست به يزداد توترا وهو يدفعها بعيدا عنه :

– ما الذي تعلمته مني ؟

بللت شفتيها الجافتين :

– ماذا تقصد أن تقول ؟

– عندما أتيت إلي في كوخي مستسلمة أخبرتني أن لك أسبابك لفعل ذلك. كيف استطعت أن تتحملي هذا الفشل أيضا ؟

– وما أهمية ذلك ؟

– أريد أن أعرف ذلك.. يا إلهي !

لم يترك نفسه تستسلم وهي لا تريد أن تكذب عليه قالت له :

– أردت طفلا .

قال لها غير مصدق ما يسمعه :

– ماذا ؟

– أنا أعشق الأطفال وأحب أن أحصل على واحد.

كانت تتحدث بسرعة وعيناها على صدره. قالت :

– كانت هذه هي وسيلتي الوحيدة للفوز. لقد وضعتني في وضع

العبودية .

قال بلهجة ساخرة :

– لقد وجدت صعوبة في تفسير رد فعلك. لقد ظننت أننا سنخرج نحن الاثنين منتصرين من ذلك اللقاء.

– أتقصد المتعة؟ نعم ولكني لست أنا مَنْ كان يبحث عنها .

تشابكت عيونهما وقالت :

– كان لابد أن أكسب شيئا .

توترت يدا "جيد" بقوة على كتفيها :

– ابن؟ هل كنت تريدين ابنا؟

– نعم ولكني لست واثقة.. ربما أصبحت حاملا. إنني أتعشم ذلك. لا شك أنه لم تكن لديّ أي فرصة للحصول على طفل حتى لو قابلت رجلا أعجبني.. لم أكن أريد أن أظل سجينة .

أخذت ترتجف. سألها :

– إذن حددت هدفك وسترحلين بابني ؟

ربما .

فردت جسدها وقالت له :

– لا تقلق فلا شأن لذلك بنا .

انفجر صائحا :

– شيء غير عادي! لست بنكا لتوفير الأولاد! ولقد تعلمت القواعد الأبوية بالطريقة السلبية وأولها ألا أهرب أبدا من مسؤولياتي .

– لا أريد أن أغضبك؛ لأن "روني"...

– ها نحن عدنا إلى نقطة البداية. فلسفة تلك العجوز "روني" الطيبة! استخدمي الغزل لتهدئته ولكنها تجهل طريقة تطبيق تلك الفلسفة. لقد انتهى كل شيء؛ ولن أوجه إليك أية أوامر بعد الآن لتستسلمي لرغباتي وتربحي معاركك الصغيرة .

– أنت لا تفهم .

رد عليها بنظرة محبطة ومعذبة للغاية

– بل أفهم. تتنازعني رغبتان متضادتان أن أهدهدك وأسري عنك، وفي نفس الوقت أخنقك؛ لأنك استغللتني. هل ستنامين؟

– أين أنت ذاهب ؟

– سأقابل "روني"؛ إنها أحسن لاعبة ورق منها كناصحة سيكولوجية.

*****

– إنها تبدو مهجورة !

أخذت "إيزابيل" تفتش بعينيها في الحواري الخالية والعشش البائسة في القرية الصغيرة الواقعة على جانب التل. سألت :

– أين ذهب السكان ؟

رد عليها "جيد" :

– ماتوا! إن أعضاء مجموعة المتمردين بزعامة "چوان بيريز" أصيبوا في هجوم فلجأوا إلى هنا، وبهدف قمع المتمردين أعطى الجنرال "مورينو" أوامره بإعدام كل الرجال والنساء والأطفال في القرية .

قالت "روني" التي كانت تقوم بأعمال رسو اليخت :

– يا له من رجل ساحر وطيب !

قالت "إيزابيل" وقد قبضت بيديها على الدرابزين :

– إنه وحش !

نظرت "روني" نظرة غيظ إلى "جيد" :

– ما رأيك لو التقطت بعض المناظر لأحث أعضاء "مجلس الشيوخ" على زيادة معونتهم للمتمردين ؟

– لقد حاولت وكالة المخابرات المركزية الإطاحة بـ"مورينو" ولكني أشك في أن يساند "مجلس الشيوخ" بطريقة علنية بلدا آخر غير "نيكا رجوا" .

– يمكننا على أية حال أن نجرب حظنا .

– إن متمردي "بيريز" لا يستطيعون التصرف. وهم في حالة سيئة بالفعل .

– إن بضعة أمتار من شريط التصوير لن تضر. هل سيستقبلنا "رامون"؟

رد "جيد" بينما "روني" تنزل الهلب :

– سيستقبلنا نحن؟ لقد كنت أظن أنك ستبقين هنا بمفردك لحراسة اليخت.

– لقد قررت أن اليخت يمكن أن يحرس نفسه وأنت ستحتاج دون شك إلى مساعدتي. ثم إن "رامون" كان دائما يفضلني.

– إن "رامون" لم يحب أبدا سوى رجال صحافته.

سألت "إيزابيل" :

– من هو "رامون" ؟

– إنه "رامون راميريز". إنه يصدر جريدة خفية في العاصمة وهو على اتصال بالمتمردين. إن "مورينو" يريد سلخ جلده مثلما يريد أن يفعل معي

قفز "جيد" فوق الجسر وساعد "إيزابيل" على أن تحذو حذوه وقال:

– لابد أن نقابله في مقر خادم الكنيسة كما فعلنا من عامين.

استدار ليساعد "روني" ولكنها كانت قد وضعت قدميها على الأرض وأضاف :

– لست واثقا بانه سيساعدنا. إنه يقوم بصيد الظباء أفضل من المسائل الضائعة.

قالت له "إيزابيل" :

– أعتقد أنه سيساعدني على العثور على ما ضاع مني.

بعد كل تلك السنوات أحست "إيزابيل" بانها لازالت غريبة على "سان ميجيل" مثلما كانت تحس بانها غريبة على "جزيرة الشتاء". سألت :

– هل أنت واثق بأن كل القرية مهجورة ؟

– نعم إذا ما صدقنا كلام "رامون".

– لنكن حريصين. إن جواسيس "مورينو" في كل مكان.

– يبدو أنك على علم بالموقف.

– ليس تماما وإلا لما احتجت لمعونتك. هل تثق حقا بهذا الـ"رامون"؟

– إن لدي ثقة في الطبيعة البشرية أكثر منك.

كتمت "إيزابيل" الألم الذي خفق في صدرها وقالت :

– لا شك أن من حقك أن تثق به وأنا ساعتمد تماما على حكمك.

عندما شاهدت "إيزابيل" القبة المصيص البيضاء للكنيسة الصغيرة والواقعة عند مدخل القرية المهجورة فقد جعلت قلبها يدق بشدة يحدوه الأمل. سواء أكانت أرضا أجنبية أم لا فإنها الآن فوق "سان ميجيل".

قالت لـ"جيد" بطريقة عفوية :

– شكرا. أنت لا تتصور ماذا يمثل ذلك لي!

قال :

– أنا لم أفعل شيئا بعد. لننتظر حتى نرى ما سيقوله "رامون" لنا.

الفصل الثامن

صاح "رامون" في وجه "جيد" وهو يركز حدقتي عينيه السوداوين الغائرتين بين وجهه السمين على "إيزابيل" :

– هل من أجل "كنيسة العذراء" أحضرتني إلى هنا؟ إنني لا أبحث عن كنوز الأسرة .

قالت له "روني" وهي تبتسم له ابتسامة آسرة :

– لا داعي لأن تنطلق في غضبك.. إنها في حاجة إلى معونتك ورغم شراستك فأنت رجل مهذب.

تحولت ثورة غضب "رامون" إليها :

– لست رجلا مهذبا وإنما أنا مواطن صالح، وفي هذه البلاد لا يمكن للإنسان أن يعيش بالصفتين .

اقتربت "إيزابيل" منه وقالت :

– ربما وجب عليّ أن أشرح لك بالضبط ما أبحث عنه، ولكني لست واثقة تماما بأنه ستكون لديك الشجاعة لمساعدتي .

انخفض صوت "رامون" :

– لست مضطرا لأن أثبت لك شجاعتي يا سيدتي .

أخذت "إيزابيل" نفسا عميقا :

– هل تقول إنك مواطن؟ ولكن هل تجرؤ على أن تسرق من "مورينو" أكثر أملاكه قيمة ؟

ابتلعت "روني" ريقها بصوت مرتفع بينما جمد "جيد" في مكانه .

تابعت حديثها وهي تتجاهل رد فعلهما :

– هل أنت مواطن لهذه الدرجة يا سيد "رامبريز" ؟

– وما هي هذه الملكية ؟

– ابنه .

همهم "جيد" :

– ما هذا الذي تحكينه؟ إن "مورينو" ليس له ابن .

قالت "إيزابيل" التي لمحت ومضة ذات معنى على وجه "رامون" :

– هذا ليس رأي السيد "رامبريز" . هل أنا مخطئة ؟

سأل "جيد" :

– "رامون" ؟

– إن الإشاعات تتردد ..

– أية إشاعات ؟

– أن صبيا محبوسا في قلعة "ديل فويجو" حيث يذهب إليها "مورينو" مرة في الشهر .

ثم سأل "إيزابيل" في حرص :

– كيف عرفت هذا الصبي ؟

ترددت بعض الشيء ثم أسرعت وقالت :

– أنا أخته .

فغرت "روني" فمها ثم أغلقته وأطلقت صفيرا بعده انفجرت في الضحك :

– ويقول "جيد" : إنه لا توجد مادة صحفية !

قال "جيد" في برود بينما كانت "إيزابيل" تتضرع إليه بعينيها :

– هذه السيدة لم تثق بي لتبوح لي بأي سر .

– إنني لم أكن أستطيع الحديث معك عن "ستيفن" ونظرا للخطر فقد كنت أخشى أن ترفض أن تساعدني، لقد مرت سبع سنوات وأنا أنتظر أن أساعده على الهروب من القلعة .

قال "رامون" :

– إنهم يسمونه الآن "مانويل" . هل أنت حقا ابنة "مورينو" ؟

لوت "إيزابيل" شفتيها من الألم والمرارة وقالت :

– لقد تسببت في ولادتي ولكني لست ابنة هذا الوحش ولست هنا لمناقشة ذلك، لديّ خطة لتهريب أخي ولكني في حاجة إلى مساعدة لنقله من القلعة إلى اليخت .

سألها "رامون" :

www.elromancia.com

– أية خطة ؟

– لقد استطاع زوجي خلال سبع سنوات أن يقلم مخالب أحد حراس القلعة، وعند وفاته تابعت المهمة، هذا الحارس يدعى "بيدرو ريديليز" وعندما سأخبره سيقول لـ"ستيفن" : إنه سيتواجد في الفناء في الساعة الثامنة صباحا بعد غد، وإنه سيحجز حراس النوبة لمدة عشرين دقيقة ونحن لن نحتاج لأكثر من هذه المدة .

– ولديك نية أن تخرجي به في هدوء ؟

– لقد مرت ثلاث سنوات لم يحاول فيها "ستيفن" الهروب من القلعة المراقبة بشدة؛ ولهذا سنعتمد على المفاجأة .

– وماذا إذا رفض الهروب؟ ويقال: إنه يعامل معاملة حسنة جدا ويتغذى أحسن تغذية ويرتدي أفخم الملابس بل إنه يتلقى تعليما رفيعا.

– لا تقلق فإنه يرغب في الهروب .

– وكيف عرفت ذلك ؟

– لقد تلقيت آخر رسالة منه من ستة أشهر، وأنا واثقة بأنه لم يغير رأيه بالنسبة لـ"مورينو" . إن ذلك الوحش أمر بقتل أمنا وزوج أمنا "جون بلفورت" أمام عيوننا، والصبي لا ينسى أبدا مثل هذا المشهد .

همهم "جيد" :

– ولا الابنة .

قالت "إيزابيل" بنفاد صبر :

– نحن لا نتحدث عني . وأنت يا سيد "راميريز" .

هناك متسع وسط الغابة على بعد كيلو متر من القلعة، إنني أتساءل فقط عما إذا كان "بيريز" يجد وسيلة لإخطار "ريديليز" أن طائرة هليكوبتر ستهبط في ذلك المتسع في الساعة الثامنة والربع.

كرر "رامون" عبارة "عما إذا كان" وقال :

– إن ذلك خطر جسيم .

– نعم ، ولكن تصور مدى الضجة التي ستنالها جريدتك ومدى تحطم "مورينو" وغيظه.

أضاء وجه "رامون" :

– بالضبط .. أريد أن أرى ذلك .

– في هذه الحالة افعلها! حرره .. وساعدني !

– إن ذلك يبدو لي أمرا يسيرا .

– لقد أرسل لي "ريديليز" خريطة بالمنطقة المجاورة ، وعلى بعد خمسة كيلو مترات من القلعة يوجد كوخ مهجور عاش هو فيه. أنا في حاجة إلى أن تصحبني إلى هناك في فجر غد، ومن هناك سأتأكد من أن كل شيء يسير على ما يرام .

تردد "رامون" :

– إنها مخاطرة، إن القلعة على بعد مائة كيلو متر من هنا، وإذا ما قبض علينا الحراس .. فسأتصل بـ"بيريز" في مقر قيادته في التلال وسنرى ماسنفعله بعد ذلك .

– ومتى ستعطيني ردك ؟

– لو كان الرد بالإيجاب فسأكون هنا في فجر غد؛ لأصحبك إلى الكوخ وإلا فإنني أنصحك أن تتركي "سان ميجيل" في أسرع وقت ممكن .

هزت رأسها نفيا وقالت :

– إذا لم تحضر فإنني سأهرب "ستيفن" بنفسي، ولن أرحل بدونه .

ارتسم تعبير من الاحترام على وجه "رامون" وقال :

– لدي إحساس بأنك قادرة على ذلك .

ثم التفت إلى "جيد" وسأله :

– وأنت ؟

أجابه "جيد" :

– لقد أعطيتها وعدا وأنا متمسك بالوفاء به .

– ولكن هذا قد يكلفك غاليا .

أوضح لهما "رامون" الممر الخفي المؤدي إلى الطرف الآخر من مقر إقامة خادم الكنيسة :

– لقد أحضرت لكم مؤنا وهي موجودة في المطبخ .

ساد الحزن وجهه وهو يشمل المكان بنظراته، كان كل الأثاث عدا المائدة المصنوعة من الخيزران التي جلست عليها "روني" مطويا ومكوما بينما رسم الصليب باللون الرمادي على أحد الجدران العارية .

اتجه "رامون" إلى الباب في نهاية المكان وقال :

– ربما نلتقي غدا .

قالت "إيزابيل" :

– انتظر.. قل لـ"بيريز" إنه مدين بذلك لـ"روزا" .

قال "رامون" من وراء كتفه :

– "روزا" ؟

– قل له ذلك وسيفهم .

هز "رامون" كتفيه بلااكتراث قبل أن يغادر المكان .

قفزت "روني" من فوق المائدة الخيزران إلى الأرض واتجهت ناحية المطبخ وهي تقول :

– سأقوم بإعداد العشاء. ولكن مكافأة لي عليكما أن تحكيا لي كل التفاصيل المملة. اتفقنا ؟

قال "جيد" عندما اختفت :

– حسنا.. هل من حقي أخيرا أن أعرف كل شيء ؟

– نعم مادمت قد وعدتك بذلك .

الآن وقد تمت المقابلة مع "رامون" أحست "إيزابيل" بأنها مرهقة لدرجة الإعياء. تركت نفسها تنزلق بجوار الجدار إلى الأرض حيث ضمت ركبتيها بين ذراعيها. وبدأت :

– لم أكن أعرفك يا "جيد"، و"ستيفن" كان سجينا ولايزال في القلعة منذ سبع سنوات، ولم يكن من حقي .

– حسنا.. حسنا.. أنا أفهمك. لنعد سبع سنوات للخلف. كيف استطاع والدي العزيز الدخول إلى المسرح ؟

– يجب أن نعود إلى ما قبل ذلك بكثير. كل شيء ابتدأ منذ أربع وعشرين سنة .

– قبل مولدك ؟

– نعم.. "مورينو" تولى وقتها السلطة ولكن كانت توجد بالفعل مقاومة يقودها "بيريز"، أمي كانت– "روزا كامينو" – واحدة من المتمردات أسرها "مورينو" وألقى بها في سجن "سالتللو" وفي إحدى زيارات "مورينو" للسجن ضمها: لقد كانت شديدة الجمال، ويمكنك أن تخمن الباقي، وقد ولدت بعد ذلك بسنة .

– في السجن ؟

– نعم. لقد قضيت فيه السنوات الست الأولى من عمري وكان "مورينو" يأتي لزيارتها من حين لآخر، وكان يتلذذ من نفورها واشمئزازها منه ..

– وهل كان يعرف أنك ابنته ؟

– طبعا.. لم يكن لأحد غيره الحق في لمسها، ولكن ذلك الوحش لم يظهر لي أبدا أي تعاطف. وبالنسبة لـ"ستيفن" الذي ولد بعدي بست سنوات كان الأمر مختلفا؛ لقد أراد "مورينو" وريثا ذكرا، وقد خطط أن يحصل عليه من أمي بعد أن تنتهي من فطامه، فجأة أصبحت زنزانتنا أنظف وتحسن الغذاء وأصبح من حقنا الخروج إلى الشمس.. إنني أعشق الشمس .

أخذت هدنة أمام ذكرى تلك اللحظات المضيئة التي توالت على ظلمات مخبئهم .

– بعد شهرين استطاع المتمردون تفريغ سجن "سالتللو" ولكن "بيريز" لم يكن يريد أي أطفال من نسل "مورينو" في فرقته، رفضت أمي أن تهجرنا وهربت في الغابة حيث خباتنا لأكثر من سنة، كان "مورينو" ثائرا غاضبا لدرجة الجنون، وأرسل فرقة مطاردة وراء أخرى حتى يستعيدنا .

– وماذا عن والدك بالتبني ؟

– لقد كان "جون بيلفورت" قسا بروتستانتيا يدير بعثة تبشيرية في أقصى جنوب "سان ميجيل": كانت أمي يائسة وأقسمت أن البعثة تمثل خلاصنا ، وأغرت "جون" بأن يستقبلنا أنا و"ستيفن" وأن يربينا كما لو

كنا من أبنائه .

– وماذا جرى لها ؟

– انضمت إلى المتمردين في التلال وكانت تأتي لرؤيتنا كلما أمكنها ذلك .

– وهل كنت سعيدة في مقر البعثة ؟

– نعم.. إن الطفل سرعان ما يكون سعيدا، و"چون" كان يعاملنا معاملة حسنة جدا بل إنه وجد وسيلة لأن يتبنانا قانونا، نعم لقد كنت أنا و"ستيفن" سعيدين .

ابتسمت في حنان :

– إنني أعتبره أكثر من شقيق.. كنت أعتبره ابني ولكن هذا لا يهمنا الآن. هل تريد أن أحدثك عن والدك ؟

– إنني أستطيع أن أتصوره تماما في هذا الجو الجهنمي .

– قام مخبر بإخطار "مورينو" عن وجودنا في مقر البعثة فقام بمراقبتها وفي الزيارة التالية لأمي هاجم جنوده البعثة وأحرقوها وقتلوا أمي وأبي بالتبني .

– يا إلهي !

– لقد نقلونا أنا و"ستيفن" إلى العاصمة، وكان والدك ضيفا على "مورينو" . وقتها كان يرغب في استثمار أمواله في الصناعات الناجحة لهذا الدكتاتور .

– وهكذا عثر على "زوجة الشتاء" .

وافقته "إيزابيل" بهزة من رأسها :

– لقد ساعدني على الهرب. وكان قد أخبر "ستيفن" أنه سيقابلنا في الطائرة الهليكوبتر ولكنه كان يكذب. لقد كانت عملية إنقاذ "ستيفن" خطرة للغاية، لقد حاولت أن أهبط من الهليكوبتر قبل إقلاعها ولكنه منعني واقنعني بأنني سأصبح أكثر فائدة لأخي خارج "سان ميجيل" .

– وهو اتفاق لم تستطيعي أن ترفضيه .

– نعم.. لو أنني طاوعته فإنه سيرتب الأمر حتى يساعد على هروب

"ستيفن" .

أغمضت عينيها وأكملت :

– لقد كان الأمر يبدو بسيطا.. لم أكن أفهمه ..

– هذا طبيعي.. كنت وقتها لازلت طفلة .

– لا.. لم أكن من الرفاهية بحيث أعيش كطفلة. لم أكن أستطيع أن أسمح لنفسي بترك "ستيفن" في السجن وأنا حرة .

– حرة ؟

– حسنا.. في سجن اخترته أنا بنفسي .

– والذي أقامه أبي.. إنه لم يخرج "ستيفن" أبدا من قلعة "سان ميجيل" .

– لقد كان دائما ممسكا أمامي بالجزرة.. أقصد سلاح الأمل.. لقد اتصل بـ"ريدبليز" الذي كان يدخل الرسائل ويخرجها من القلعة وكنت أعيش على تلقي تلك الرسائل، وكانت "بيتي" هي التي تسلمها لي عندما أبدي الطاعة فإنني أتلقى مكافأتي وإلا.. لقد حدث في إحدى المرات أن أحرقت إحداها أمام عينيّ، ومن وقتها لم أرتكب غلطةً تحدّيها .

– هل كنت تفهمين ما يفعله أبي ؟

– ليس في البداية.. لقد كان من البراعة بحيث خدعت فيه وهو يحيي آمالي في أن أرى "ستيفن" حرا. إن الأمل يحيي المرء... هل تسامحني ؟

قال بصوت مغلف بالعاطفة :

– لا تكوني مضحكة.. ليس هناك ما أسامحك عليه .

– بل هناك... إنني لم أكن أمينة معك .

– نظرا لمعرفتك بالجنس البشري فإنني أعتبرك قد وثقت بي جدا.

– لقد كنت صادقة حقا في كل ما أقوله، ودورك في كل هذا انتهى، وإذا كنت تنتظر عودتي ...

قاطعها :

– لا مجال للمناقشة في ذلك. سآتي معك .

– ولكنها معركتي، و"مورينو" حانق عليك بما يكفي. وأرفض أن

أعرضك إلى مواجهة خطر إضافي .

قال لها بسخرية :

– وأنا أرفض أن تلقي بي بعد الاستعمال .

ذكرتها عبارته بشيء ما فقالت :

– هذا ما قالته لك "روني" في الفندق .

– "روني" تقول أشياء كثيرة بعضها صحيح جدا ثم يجب علينا أن نمنعها من أن تلتصق بنا .

– كيف ؟

فرقع بأصابعه فجأة :

– "بيريز" ! سأطلب من "رامون" أن يصحب فضوليتنا الساحرة إلى الحي العام للمتمردين بعد أن يوصلنا إلى الكوخ، ويستطيع طيار "بيريز" أن ينقلها بالهليكوبتر، إنها تفضل تصوير الفدائيين وهم في العمل عن الذهاب بحثا عن معلومات عن القلعة .

اتجه نحو المطبخ وهو يقول :

– بالنسبة لـ"روني" أعتقد أنني سأساعدها في المطبخ. إنني لست متمسكا ببدء هذه المهمة وأنا مصاب بعسر الهضم .

– أنا لست في حاجة فعلا إليك يا "جيد" . لقد صارعت أمي في المقاومة منذ سن الرابعة عشرة، وعليك أن تؤمن حقا بأنها علمتني طرق الدفاع عن نفسي .

– إن مساعدة بسيطة من صديق لن تضر شيئا .

أضاءت ابتسامة نادرة الجمال وجه "إيزابيل" وهمست :

– صديق ؟

– نعم.. دعينا لما بعد من التفاصيل الملتهبة من علاقتنا، أعتقد أنك في حاجة إلى صديق .

اعترفت وهي غير قادرة على نزع عينيها عنه :

– هذا صحيح... لم يكن لديّ أبدا صديق سوى "ستيفن" .

– يا إله السماوات! ماذا تريدين أن تصنعي بي ؟

أخذ يتأملها بنظرة عميقة ثم دار على عقبيه ودخل المطبخ .

سمعت "إيزابيل" – بشكل مبهم– "روني" وهي تقول شيئا ما ولكنها لم تفهم معنى كلماتها. كل شيء كان يختلط في رأسها ماعدا مصدرا واحدا مضيئا مثل البلّور .

كيف استطاعت أن تكون عمياء لهذه الدرجة بحيث لا تفهم ما يحدث لها ؟

لقد كانت العلامات المضيئة تظهر بوفرة من كل اتجاه، كان عليها أن تعرف أنها تحب "جيد كوربن" .

*****

رفعت "روني" عينيها من فوق المستند الذي كانت تقرأه وسألتها:

– هل ستعطين بيتك حقا لـ"جيد" ؟

– إنه بيته، إنه لم يكن ملكي أبدا.. لم يكن لي أي بيت، هل تتفضلين بوضع توقيعك كشاهدة ؟

بعد أن ترددت "روني" قليلا وضعت توقيعها في المكان الذي أشارت إليه "إيزابيل" . وقالت لها وهي تنهض :

– ولا أنا كان لديّ بيت... وأردت دائما أن يكون لي بيت. هل تريدين مني أن أوقع شيئا آخر ؟

– لا .

أثارت كلمات "روني" فضول "إيزابيل" .

– لقد ظننت أنك أمريكية .

– نعم ولكن هناك مشاكل .

كان من الواضح أن "روني" لا تريد أن تضيف شيئا وسرعان ما كانت عند الباب .

سألتها "إيزابيل" :

– أين أنت ذاهبة ؟

– أحضر أكياس النوم الخاصة بنا من اليخت .

– هل ستحتاجين إلى مساعدة ؟

هزت "روني" خصلات شعرها الأشقر وقالت :

– إنني قوية بما يكفي لحمل ثلاثة منها . إلى اللقاء .

في الحقيقة كانت الفتاة قوية، ولكن "إيزابيل" استطاعت مرة ثانية أن تعرف مدى ضعفها الخفي وراء هذه القوة .

أحست "إيزابيل" بالارتياح بعد أن انزاح عن كاهلها عبء ثقيل، فوضعت المستند بعناية في حقيبة الظهر الخاصة بالرحلات والتي تخص "روني" .

يمكنها الآن أن تقضي هذه الأيام الأخيرة في صحبة "جيد" ولا يطاردها شبح "جزيرة الشتاء" .

*****

ألقت "روني" نظرة إلى الكوخ الصغير ذي السقف المصنوع من القش وهي داخل السيارة وقالت :

– إذا أردت ألا تجدي نفسك وجها لوجه مع العقارب فعليك أن ترشيها بالمبيدات الحشرية .

صاح "جيد" وهو يساعد "إيزابيل" على الهبوط من السيارة :

– ظريفة للغاية !

سألته "روني" :

– هل أنت واثق بانك لست في حاجة إليّ؟ لست مضطرة للذهاب لمقابلة "بيريز" .

– إننا سننجو بدونك .

– لنأمل ذلك. هيا يا "روني" اذهبي فأمامي عمل .

قال "رامون" لهما :

– ساكون هنا غدا في السابعة والربع لاصحبك إلى القلعة .

ردت عليها "إيزابيل" :

– لا داعي لذلك فلديّ خريطة .

رد "رامون" :

– إنني لن أساعدك على الهرب وإنما سأصحبك إلى المتسع، ليست لديّ رغبة في أن تفسدي كل جهودي بأن تقعي في الأسر بغباء .

بعد ذلك أدار محرك سيارته الـ"فورد" القديمة وابتعدت السيارة وهي تنفث على الطريق المترب .

جمع "جيد" أكياس النوم وقال لها :

– لا تتحركي فإنني ساعد معداتنا وبعدها سنذهب لفحص القلعة، وربما كانت "روني" على حق بالنسبة للحشرات .

– أعرف كيف أتعامل معها .

– لا أشك في ذلك ولكن في هذه الحالة بالذات دعيني أقوم بذلك.

نظرت "إيزابيل" إليه وقلبها مفعم بالسعادة وهو يبتعد نحو الكوخ، إنها لا تذكر أنها كانت محمية هكذا من قبل، طبعا ذلك لن يستمر ولكن لا ضرر من أن تستفيد من ذلك قليلا .

قال لها "جيد" من وراء كتفه في مرح وتهكم :

– كيف هذا؟ ألا تعترضين كالعادة ؟

إنه مثل البطل "لانسلوت" : شجاع، وعاطفي، وذكي، وفضولي ورقيق.. يا إلهي كم تحبه !

– لا .. ليس هناك أي اعتراض !

*****

همست "إيزابيل" وهي تفحص البرجين التوءمين للقلعة التي تبتعد عنهما بمائة متر :

– لا يوجد متاريس.. وهناك بوابة كما قال "ريديليز" في رسالته المكتوبة .

فرق "جيد" أفرع الشجيرات التي كانا يختبئان وراءها. عادت الأوراق إلى مكانها بعد أن أحدثت حفيفا خفيفا .

– كل شيء في مكانه بدرجة كاملة .

أخذا يسيران دون أن يستشير أي منهما الآخر وسط الطريق الملتوي عبر الغابة المؤدي إلى الكوخ ، وكان "جيد" مقطبا جبينه وهو يفكر. ثم قال :

– لا داعي لأن نذهب نحن الاثنين لإحضار شقيقك .

– هذا ما قلته لك .

– إذن أنا الذي سيذهب .

ردت عليه بلهجة لا تقبل المناقشة :

– لا .

– إن لديّ ميزة الخبرة .

– ولكنه أخي، وهذه مشكلتي أنا .

قال "جيد" وقد زم شفتيه :

– ستريين .

يالله من عنيد! إنه تماما مثل أبيه .

لقد خطرت على بالها هذه الفكرة من حيث لا تعلم وجعلتها تشعر بالخوف. لقد استطاعت أن تتحمل سيطرة "آرنولد" ؛ لأنه لم يكن يلمسها عاطفيا أما بالنسبة للحب الذي تحمله لـ"جيد" فإنه يسيطر عليها تماما وبدرجة لا تطاق .

همهمت :

– لا داعي لهذا التجهم. كل شيء سيمر على خير ما يرام، وسنتجو من ذلك .

من المؤكد أنها ستهرب "ستيفن" وعليها الآن أن تستمتع بكل لحظة بقيت لها في صحبة "جيد كوربن" دون أن تفكر في المستقبل.

الفصل التاسع

خرج "جيد" من الكوخ ليلقي كومة من البقايا والنفايات بالقرب من الباب : كان قميصه الرمادي يلمع وقد بلله العرق وكان يلتصق بصدره، وكان بنطلونه التيل الرمادي مغطى بنفس الرماد والغبار الذي غطى خصلات شعره الفضي .

ذابت "إيزابيل" حنانا عندما شاهدته.

سألها :

– أين كنت ؟

تقدمت نحوه وقد اختفت عيناها بين رموشها الطويلة :

– ألا يوجد عناكب سوداء سامة ؟

– ولا واحدة الآن. لقد كنت مستعدا للقيام بمعركة معها ولكني أحسست بالإحباط لعدم وجودها .

استقرت عيناه على ضفيرتها الطويلة اللامعة التي سقطت وسط صدرها. سألها :

– لماذا شعرك مبتل هكذا ؟

– لما كنت لا تريد مساعدتي في معركتك مع العناكب السوداء فقد انتهزت الفرصة وذهبت في جولة استكشافية، هناك بركة على بعد مسافة من هنا .

اكفهر وجه "جيد" :

– ولماذا لم تنتظريني حتى نذهب لنسبح معا ؟

– أنا لم أواجه أي خطر، ولا تنس أنني كبرت في الغابة .

دارت على عقبيها وقالت له :

– هيا بنا .

– إلى أين ؟

– إلى البركة. إن حماما سيفيدك جدا .

كانت تحاول أن تبقي وجهها خاليا من التعبير ولكن لابد أنه قرأ عليه

شيئا ما؛ لأن وجهه تغير فجاة :

– ألن تاتي ؟

همهم :

– بلى سآتي .

بعد عشر دقائق وصلا إلى البركة الصغيرة. أبعدت "إيزابيل" فروع الغاب وألقت بنفسها على ضفة البركة المغطاة بالطين. كانت يداها ترتجفان فشبكتهما حول ركبتيها.

قالت له :

– توقع صدمة.. بعد الشمس الحارقة ستجد الماء مثلجا .

– ألن تسبحي مرة ثانية ؟

قالت له بصوت متحشرج :

– سانتظر هنا .

– ماذا ستنتظرين ؟

ردت وقد خفضت عينيها :

– لا شيء .

– إلى اين سيؤدي كل ذلك يا "إيزابيل" ؟

لم تكن "إيزابيل" تتوقع أن تكون عصبية وخجولا لهذه الدرجة ، واضطرت لأن تبذل جهدا حتى تجيب عليه بطريقة طبيعية. قال لها:

– أنت تشعرين بالحرارة وستذهبين للسباحة. عندما نظرت إلى البحيرة رأت جسده تحت الماء حتى عنقه. وكان يرتجف. قال لها:

– الحق معك.. إن الماء مثلج فعلا .

قالت له :

– إنني أفضل أن آخذ حمام شمس .

استلقت فوق الشاطئ وأخذت مياه البركة المخلوطة بالطين تداعب جسدها. قالت له :

– لا تلق بالا إليّ .

– هل تمزحين ؟

كيف يمكنه أن يموت من العطش بجوار النافورة ؟

كان إعصار من العواصف والأعاصير العاطفية يسيطر عليها ويفقدها قدرتها على التفكير. إنها تعرف أنه ملكها وأنها ملكه مهما فرقت بينهما الظروف والاحداث .

فجاة أحست بتغير في مسلكه.. أحست بأنها مخطئة وخدعت في ظنها. إنه لم يكن أبدا ملكها وسعادتها لا يمكن إلا أن تكون عابرة .

كتمت رجفة حزن وأسى .

خرج "جيد" من الماء وجلس القرفصاء بجوارها. سألته :

– لماذا تغيرت هكذا فجاة ؟

– ربما كان السبب ذلك الاتفاق اللعين بيننا. لماذا تحللين كل شيء وكل تصرف ؟

– ربما لديّ روح الصحفية.. ربما لإحساسي دائما بانك تخفي شيئا .

ربما لو صارحته بكل شيء لأفسدت الساعات الباقية أمامهما. قالت له :

– ربما. أنا أخاف بعض الشيء من الغد، إن "موريتو" يطاردني منذ الأبد. لقد أخذ مني كل شيء وأريد أن أنسى إمكانية أن يعود كل شيء مرة أخرى .

رقت ملامس "جيد" ولمس خدها في حنان :

– لا تخافي من شيء. ساحميك دائما .

دائما.. إن تلك الكلمة التي تربطهما تبدو مرة وحلوة في آن واحد .

قالت له :

– أريد أن أتصرف بمفردي. إنني أستطيع ذلك .

– أعرف ذلك.. أعرف أنني هنا لأسرّي عنك، وأتعشم أن تكوني راضية.

– أنا راضية .

– أريد أن أفعل أكثر من ذلك فأنا مشهود لي بانني أرتفع دائما مع الأحداث ومستعد لأثبت لك كلامي .

*****

اندست "إيزابيل" داخل كيس النوم وقالت له :

– يمكنك أن تطفئ النور .

– ليس بعد .. فأنا في حاجة إلى الحديث معك .. صفيه لي ؟

– من هو ؟

– أخوك !

– ذكي، ومحبب للناس، وماكر وحتى لو لم يكن أخي فإنه يستحق المغامرة لإنقاذه .

– ربما لم يعد نفس الصبي الذي رأيته آخر مرة من سبع سنوات .. لقد تقابل كثيرا مع "مورينو" .

– إنه لم يتغير وإذا قرأت خطاباته فستفهم.

– في هذه الحالة لماذا يقوم "مورينو" بزيارته كل شهر ؟

– لقد أدرك "ستيفن" أن حياته ستصبح أكثر تحملا لو أنشأ علاقات طيبة معه .

– هل هذا الصبي يستطيع أن يناور متوحشا فظا مثل "مورينو"؟

– ستفهم عندما تقابل "ستيفن" .

– أنا لا أريد أن تصابي بخيبة الأمل . . .

كانت لهجته المشوبة بالملل تحتوي أيضا على قلق أثلج قلب "إيزابيل"، وملأه بالحنان العميق الذي بدا بالنسبة لها عذابا . تابعت لتغير الموضوع :

– اطمئن .. لقد اهتممت بكل شيء . وأوفيت بوعدي .

– أي وعد ؟

– "زوجة الشتاء" لقد تنازلت لك عن اللوحة والجزيرة كتابة وقد شهدت "روني" على التنازل .

زمجر غاضبا :

– لتذهب "زوجة الشتاء" إلى الجحيم .. إن تلك السيدة قد أرهقتني .

– لا تقل هذا .. إنك بسببها موجود هنا .

– لم أعد واثقا بذلك .

– أردت فقط أن تعرف أنه تم تسوية كل شيء .

– لقد قلت لك : إنني لا أريد الجزيرة .

– ومع ذلك فبالتأكيد هي مهمة عندك أكثر مما تعتقد . لقد كبرت عليها .. ألم تكن تحبها وأنت صبي صغير ؟

التزم "جيد" بالصمت ثم انتهى به الأمر بأن قال :

– بلى .. لقد كنت أراها بعيني أمي . كانت تعشق كل حجر في القصر، وفيما بعد لم أر "جزيرة الشتاء" أبدا إلا من خلال عينيه هو .

– وقد أفسد عليك ذلك . نحن لم نكن محظوظين مع والدينا .

– ياله من أمر محزن! لقد حرمك من بيتك .

– وحالتك أنت كانت أسوأ يا "إيزابيل" .. إنه لم يمنحك أي بيت .

– لا .. إن المرء يزداد حزنا عندما يفقد شيئا كان يملكه أكثر مما لو لم يكن يملك شيئا على الإطلاق .

– كم هو جميل الكلام الذي يسمعه المرء من صديق.

– هل تعتقد ذلك؟

– نعم .

– حسنا .. نامي! نحن في حاجة لأن نكون في كامل لياقتنا الصحية عندما نستيقظ .

نعم لابد أن ننام ولكن ليس وقتا طويلا؛ حتى تتأكد من أن تستيقظ قبل "جيد" . أغمضت عينيها ونعست .

*****

– ولكن أين أنت ذاهبة ؟

دارت "إيزابيل" في مكانها، كان "جيد" جالسا فوق كيس النوم. كان عليها أن تعرف أنه رغم كل حذرها واحتياطاتها فإنها ستوقظه .

– لم أكن أرغب في مضايقتك .

عادت لتركع بجواره. سألها :

– ماذا تفعلين..؟ كم الساعة الآن ؟

– إن السيد "راميريز" لن يصل إلا بعد فترة طويلة ولما لم أكن أستطيع

النوم فقد قررت الانتظار بالخارج .

سألها بلهجة أقل تشككا :

– لماذا لا تدعيني أذهب بمفردي إلى القلعة؟

نظرت إليه "إيزابيل" نظرة غريبة جعلته يتصلب في جلسته . سألها :

– ماذا جرى لك ؟

– أريد أن أعبر لك عن مدى عاطفتي نحوك .

– لقد أسأت اختيار اللحظة .

كانت نظرات "جيد" تعبر عن عكس ما يقوله .

همست الشابة في أذنه :

– لديّ شيء ما أريد أن أعترف لك به ويساعدني على أن أكون بجوارك كلية .

استرخى على جانبه وأسند رأسه على كوعه :

– ما هو ؟

– أنا أحبك .

– "إيزابيل" !

– لا تقل شيئا . . لابد أن أعترف لك بذلك .

نهضت "إيزابيل" في هدوء وطبعت قبلة على جبينه ثم غادرت الكوخ .

بعد خمس دقائق ظهرت السيارة الـ"فورد" المرهقة الخاصة بـ"رامون" فوق الطريق المترب .

سأل الرجل –وهو يفتح الباب المجاور له – "إيزابيل" :

– أين "جيد" ؟

– سنلتقطه بالهليكوبتر . لقد قرر الانتظار هنا .

سألها وقد بدا عليه الشك :

– هل قال "جيد" هذا ؟

– لا . . بل أنا التي قلت ذلك .

– لا أظن أن . .

صاحت :

– كف عن الظن . . أستطيع إخراج "ستيفن" من القلعة بمفردي، وأرفض أن أعرض "جيد" لمزيد من الأخطار .

– ولكن ماذا لو قررتُ أنك في حاجة إلى معونتي ؟

– أنا التي تقرر، لقد نظمت كل شيء ولن تكون هنا إذا قرر "بيريز" وأنت أن تحرير "ستيفن" لا يستحق المخاطرة .

صعدت إلى المقعد المجاور للسائق واستقرت عليه :

– سنذهب إلى هناك .

صاح "رامون" يسب ويلعن :

– يا إلهي! ليس لدينا وقت للنقاش .

بدأ يحرك السيارة وقال :

– لديّ رسالة من "بيريز" لك .

– لا تقل لي شيئا . أعرف أننا لسنا موضع الترحيب في "سان ميجيل" .

– طبيعي بالنسبة له أن يستقبل ابنة "الكوبرا" في أحضانه .

– إذا ساعدت "ستيفن" على الهرب فلن نزعجه بعد ذلك أبدا .

نظر إليها "رامون" متسائلا :

– إنني لازلت أتساءل كيف استطعت أن تقنعي "جيد" بالا يحضر، لقد سبق أن شاهدته وهو في مهامه الخطرة، إنه رجل عنيد وشجاع جدا .

– إنني أتضرع إلى الله أن تكون على خطأ .

هز "رامون" كتفيه بلا اكتراث ودار بالسيارة الـ"فورد" نصف دورة ثم انطلق .

*****

– اللعنة . . استيقظ !

كان أحدهم يهز "جيد" بعنف ودون هوادة .

فتح الشاب عينيه على وجه "روني" القلق وهي منحنية فوقه؛ حل الارتياح محل القلق على وجه الملاك الأشقر التي قالت :

– لقد سببت لي خوفا أزرق . ما الذي فعلته بك إذن "إيزابيل" ؟

رفع "جيد" يده في تردد إلى عنقه :

– أين هي ؟

– أعتقد أنها في القلعة ولما لم تكن أنت معها فقد أصدر "رامون" إلينا الأوامر باللاسلكي أن نهبط هنا قبل الذهاب إلى المتسع. هل أفقدتك وعيك ؟

– لا.. لقد ضغطت بطريقة فعالة على الشريان السباتي فانطفأت الحركة مني كالمصباح .

صاحت "روني" في إعجاب :

– إنها موهوبة جدا !

– أعترف أنها سبق أن حذرتني.. اعتبارا من الآن سأصدقها في كل ما تقوله .

نهض بصعوبة وقال :

– لنخرج من هنا .

قالت "روني" :

– أنا واثقة بأنه كان باستطاعتها أن تسبب لك أذى أكبر لو أرادت .

– وهل تظنين أن هذا يسرّي عني ويخفف من غضبي؟ هيا نسرع بالرحيل .

– إنها فقط أرادت حمايتك .

زمجر "جيد" :

– أعرف ذلك جيدا. لقد عاشت الجحيم لتحمي أخاها، وهي تلعب دور الملاك الحارس بالنسبة لي .

– هل سنذهب إلى القلعة ؟

– سنصل إليها فيما بعد.. لم يبق أمامنا سوى الذهاب إلى الهليكوبتر في الموعد في المتسع؛ وبهذه الطريقة سنكون في المكان إذا...

منع الخوف "جيد" من إكمال عبارته؛ أكملت "روني" :

– إذا حدث شيء ما ..

– نعم إذا انقلبت الأمور إلى الأسوأ .

خنق اليأس "إيزابيل" . كل شيء انقلب إلى الأسوأ فقد ظهر الحارس عند ناصية المبنى وفي لحظات سترى البوابة الحديدية وهي مفتوحة وسيطلق إنذارا، لقد خرج قبل موعده بعشر دقائق.

همست لـ"ستيفن" وهي تتعثر في البوابة وتجري نحو الغابة :

– اجر يا "ستيفن" ! ولا تتوقف تحت أي ظرف .

أمسك "ستيفن" بأخته بيده ليساعدها على التقدم أسرع، وقال :

– لا تخافي ولا تقلقي.. لقد ظللت أستعد لهذه اللحظة منذ سبع سنوات .

صرخ أحدهم في ظهرها فقبضت "إيزابيل" على يد شقيقها في عصبية:

– لقد شاهدونا.. اتركني.. أنت تجري أسرع مني.

بدلا من أن يطيعها "ستيفن" زاد من قبضته :

– لا.. إذا أمسكوا بك فسأضطر لأن أعود حتى أبحث عنك مرة ثانية .

– "ستيفن" !

نسيت "إيزابيل" إلى أي حد أن أخاها عنيد، انحرفت لليسار نحو المتسع وزادت من سرعتها، وكانت الشجيرات تتكسر خلفهما.

أخذت "إيزابيل" تدعو أن تصل الطائرة في موعدها، سمعت صفير طلقة رصاص بجوار أذنها. إنهم يقتربون. غامرت وألقت نظرة خلفها ولكن الطرق المتعرجة جعلت مطارديهما غير ظاهرين.

– لابد أن الهليكوبتر وراء أشجار النخيل هذه. إننا سنتمكن من الوصول إليها .

قال لها "ستيفن" :

– لم أشك أبدا في ذلك .

– هل رأيت ذلك في الكرة السحرية البلّورية و... أوه.. لا..!

ماتت آخر كلمة على فمها من اليأس وهي ترى الطائرة تقلع وترتفع أمامهما بالضبط فوق رؤوس النخيل ...

– أوه.. إنهم يتخلون عنا !

ظهر "جيد" فجأة أمامهما من وراء أكمة أشجار وصاح :

– لا يوجد وقت.. هيا من هنا !

توغل في يسار الممر الذي أخفته الشجيرات وتبعته "إيزابيل" بالغريزة وهي تسحب "ستيفن" معها، وكانت الطائرة المروحية تهدر فوق رؤوسهم. كانت الرياح الناتجة من مراوحها قد ضغطت على النباتات الخضراء حولهم، وانطلقت طلقات الرصاص. هل كانوا يصوبون عليهم أم على الهليكوبتر ؟

أمسك "جيد" بذراعها ليدفعها تحت شجيرة مورقة وجثم عليها وثبتها على الأرض بينما انبطح "ستيفن" على بطنه بجوارهما .

بحث "جيد" بعينيه وسط النباتات الخضراء الكثيفة التي تخفيهم عن الطريق وسط الأحراش وقال :

– لقد كان الحراس قريبين جدا، ولن يكون هناك وقت لتصعدي الطائرة، ولم يعد يبقى أمامنا سوى أمل واحد وهو أن يظن الحراس أنكما نجحتما في الهرب وسيكفون عن مطاردتهم وبحثهم عنكما ويوجهون هجومهم على الطائرة .

سأل "ستيفن" :

– وماذا لو كانوا قريبين جدا بحيث يروننا ؟

قال "جيد" :

– في هذه الحالة نكون فشلنا. لم يعد لدينا وقت للانتظار .

همست "إيزابيل" :

– ما الذي جاء بك؟ لم يكن هناك داع لحضورك .

– أعرف هذا ولقد أوضحت لي ذلك تماما. والآن اغلقي فمك ودعينا نرى إن كانت خدعتنا ستنجح .

ابتعدت الطائرة نحو الجنوب وكتم الثلاثة أنفاسهم. انطلقت رصاصات أخرى تلاها سباب ولعنات ثم صدر أمر صارخ .

أحست "إيزابيل" بارتياح مجنون فدست رأسها بين ذراعيها .

سيعود الجنود إلى القلعة ليعطوا أمرا باللاسلكي لمطاردة الطائرة .

ابتعدت الأصوات وساد السكون شيئا فشيئا على الغابة الكثيفة. لم تجرؤ

"إيزابيل" على الكلام، حاول "جيد" صعود التل زحفا فقالت :

– لا تتحركا! ساتأكد أن كل شيء على ما يرام .

رد "جيد" بحزم :

– ابقي مكانك ! وإذا لم يكن يهمك شيء فعلى الأقل اهتمي بسلامة أخيك .

كانت عضلاتها مشدودة وقد ثبتت عينيها على الشجيرات التي اختفى "جيد" خلفها. همس أخوها :

– إنه مخلوق ذكي.. قدميه لي عندما يتاح الوقت .

أدت ملاحظة "ستيفن" المتهكمة إلى استرخاء أخته :

– لن يفوتني ذلك أبدا .

عاد "جيد" ليظهر ثانية بعد بضع دقائق :

– لقد نجحت الخطة. لم يتركوا أحدا خلفهم .

زفرت "إيزابيل" :

– حمدا لله .

قال "ستيفن" مقترحا بلهجة تمثيلية :

– ألن تقدمينا لبعضنا البعض ؟

قدمتهما "إيزابيل" :

– هذا "جيد كوربن" وهذا "ستيفن" .

قال "ستيفن" بنفس اللهجة التمثيلية الرسمية :

– سعيد بمقابلتك .

رد عليه "جيد" بنفس الجدية :

– كيف حالك ؟

قال الشاب وقد أشرق وجهه :

– بخير.. بل في منتهى السعادة. والآن ماذا ستفعل ؟

– سننتظر عودة الطائرة بعد عشرين دقيقة .

صاحت "إيزابيل" :

– ماذا ؟

– إن الحراس سينضمون إلى القصر ولن يتوقعوا أبدا أن يكون لدى الطائرة الوقت للعودة للمتسع .

انفجر "ستيفن" ضاحكا :

– هل رأيت يا "إيزابيل" . ألم أقل لك إنه ذكي ؟

– أخيرا وجدت من يقدرني . إن أختك لا تثق بي إطلاقا .

– هذا ليس الأمر ....

قال "جيد" :

– أعلم هذا . لنقترب من المتسع حتى لا نضيع الوقت .عندما تعود الطائرة سأراقب الطريق إلى القلعة .

قال "ستيفن" لأخته :

– إنه غاضب .. هل لديه سبب ليغضب؟

اعترفت :

– نعم .

– هل هو نوع من الدلال من جانبك ؟

– ولماذا تقول هذا ؟

– لست أعمى يا "إيزابيل" .. لقد قضيت سبع سنوات من عمري أراقب كل ما حولي .

– أنت ترى أكثر من اللازم .

أخذت تفحصه عن قرب، من أول نظرة وهما في فناء القلعة أوشكت ألا تتعرف عليه، إنها لم تقابل الطفل الذي تركته من سبع سنوات ذا الشعر المجعد والعينين السوداوين الواسعتين، ولكنها اكتشفت وهي سعيدة أنه ظل محتفظا بحيويته والسحر الماكر الذي عرفته عنه في طفولته . لم ينجح "مورينو" في تحطيمه .

قالت مازحة :

– لا شك أن حياتي كانت ستظل أكثر راحة لو تركتك في القلعة .

رد عليها واحدة بواحدة :

– ربما كانت أكثر راحة ولكن أقل أهمية وإثارة . هيا بنا .. إن "جيد"

على حق .. من مصلحتنا أن نقترب أكثر من الطائرة عندما تحضر لتقلنا .

*****

كان "رامون" في انتظار الطائرة الهليكوبتر عندما هبطت في القرية الساحلية بعد ساعة، وساعد "إيزابيل" على الهبوط وهو يصيح في وجه "جيد" :

– أسرعوا .. إن "مورينو" في حالة غضب جنوني ومسعور وطلب تمشيط الجزيرة بمشط ضيق الأسنان .

قالت له "إيزابيل" :

– شكرا على مساعدتك يا سيد "راميريز" .

– ليكن واضحا تمام الوضوح أنني لم أفعل ذلك من أجلك ولا من أجل أخيك وإنما لأجعل "مورينو" موضع السخرية والاستهزاء، وإذا لم تتركي المكان في الحال فإن كل ما فعلناه لن يكون له أي فائدة .

قفز "جيد" من الطائرة وقال :

– شكرا يا "رامون" .. وأنت يا "روني" كُفّي عن التصوير ودعينا نرحل من هنا فورا .

صاحت "روني" وهي تهبط بدورها من الطائرة يتبعها "ستيفن" .

– حالا .. مر أمامي يا "ستيفن" ؛ إنني أريد أن أصورك وأنت ترحل أنت وأختك .

أشار "جيد" للطيار أن يقلع وأمسك "إيزابيل" وهو يصيح للطيار:

– لا تنتبه إليها .. وأنت يا "ستيفن" أسرع .

كان الشاب ثملا من حصوله على الحرية وأخذ يتبختر كالطاووس أمام الكاميرا .

قالت له :

– اهدأ .. أنا أصور تحقيقا مصورا وليس فيلما للهواة .

ابتسم الشاب لها ابتسامة ماكرة فطرت قلب الفتاة :

– هل تفضلين المنظر الجانبي لوجهي؟ إنه أفضل .

أعاده "جيد" إلى التزام النظام :

– بحق السماء يا "ستيفن" أسرع !

قرر الشاب أخيرا أن يقفز فوق سطح اليخت ثم أخذ يغني ويراقص أخته ويصيح :

– بعد القلعة.. العالم جنة !

أجابته في رقة وهي لا تريد أن تخيب آماله بعد كل المحن التي مر بها وتحملها :

– نعم.. على أية حال ستعمل على أن تجعل الدنيا جنة يوما ما.

وضعت "روني" قدمها بدورها فوق اليخت وقالت :

– ساترك لك الدفة؛ لانني أريد تصوير "سان ميجيل" وأعتقد أنك ملاح أمهر مني .

الفصل العاشر

سألت "إيزابيل" :

– هل وصلنا إلى المياه الدولية ؟

رد "جيد" :

– منذ أكثر من ربع ساعة .

– وهل نحن في أمان ؟

– ذلك يعتمد على "موريتو" وعلى الحد الذي يريد به أن يستعيد "ستيفن" .

ارتجفت "إيزابيل" :

– بعد هروبنا من القلعة في المرة السابقة ظل يبحث عنا طوال تسع سنوات .

– إن لدينا إذن رغبة مهمة للوصول إلى "سان جوان" بأسرع وقت ممكن، وسنبحر إلى "جورج تاون" في "جيانا" ومن هناك سنستقل الطائرة إلى "بورتوريكو" .

ألقى نظرة ضيق وملل إلى "روني" و"ستيفن" اللذين كانا يمزحان ويستمتعان بوقتهما في طرف الباخرة الآخر وقال :

– انظروا.. من يراهما يظن أنهما في رحلة سياحة بحرية !

قالت "إيزابيل" :

– إنني أحسدهما.. إنهما صغيران جدا و... قويان .

– قويان ؟

– إن لديهما الطاقة للاستفادة بكل اللحظات السعيدة دون أن يسمحا لنفسيهما بالهزيمة من الشر.. كم أود أن أكون مثلهما!

– كيف يمكنك أن تكوني هكذا؟ إنك مختنقة تماما وقد وضعت نفسك في قوقعة الحزن .

– لقد كنت أظن أن الصبر والتحمل هما القادران على جعلي أنتصر. ربما كان عليّ أن أصارع أكثر من ذلك بدلا من أن أدع نفسي مستعبدة.

هل تدري.. أنني لم أكن أريد أن أسبب لك ضررا؟

اشتدت قبضة يد "جيد" على عجلة الدفة وقال :

– لا أريد الحديث عن ذلك الأمر.. المهم هو أن أوصلك إلى بر الأمان .

كان لايزال حانقا عليها وهي متفهمة لذلك .

– هذا صحيح.. ولكني كنت متمسكة بأن تعرف ذلك.

ناداها عندما اتجهت لتنضم إلى "روني" و"ستيفن". نظرت خلفها وكانت عينا "جيد" تلمعان تحت ضوء الشمس مثل قطعتي ثلج أزرق. قال :

– لقد فاض بي الكيل من استغلالك لي والأكثر من محاولاتك حمايتي. انتظري حتى نصل إلى "سان چوان" وسترين تغييرات جذرية .

*****

سلم "جيد" كلا منهم مفتاح حجرته في الفندق الذي مرا عليه قبل رحلتهما إلى "سان ميجيل" .

– أنتم الثلاثة في الدور الخامس وأنا في السادس وإنني أوصي بأن تذهبوا لتناموا في الحال .

ردت الشابة وهي ترتجف من التعب :

– لست متعبة في الحقيقة؛ فقد نمت في الطائرة وكل شيء سيتحسن بعد دش جميل .

سألها أخوها :

– هل ستأتين معي لزيارة المدينة ؟

– نزور المدينة.. ولكن الوقت ليل .

– إنني في الحقيقة أريد أن أشاهد الناس وأتمشى في الشوارع وأستمع إلى الضجيج .

صاحت "روني" :

– ضجيج..؟ أنت مجنون !

– لقد كانت القلعة شديدة السكون .

انفطر قلب "إيزابيل".. لقد حُرم أخوها من أشياء عديدة طوال سنوات الأسر فقالت له :

– ساكون معك خلال عشرين دقيقة .

تدخلت "روني" :

– "جيد" على حق.. لقد عانيتم الكثير من الانفعالات مؤخرا وفي حاجة إلى بعض الراحة... حسنا يا "ستيفن" اذهب وبدل ملابسك وخذ دشا وساعمل على أن أجد لك ضجة وساستغل الفرصة لألتقط صورا عن ساعات الحرية الأولى لابن "مورينو".. اتفقنا ؟

قال "ستيفن" مازحا :

– مادمت ستلتقطين المنظر الجانبي لوجهي! ألن تغضبي مني يا "إيزابيل" لو تركتك ؟

سألت "إيزابيل" "جيد" :

– أليس في ذلك خطر ؟

– لا أظن ذلك فنحن في منطقة أمريكية ومن الواضح أن "مورينو" ليس في أعقابنا ولا أعتقد انه يريد أن يفجر حادثا دوليا .

– اذهب يا "ستيفن" وكن حذرا .

قال "جيد" وهم داخل مقصورة المصعد :

– إن "روني" تعرف كيف تتجنب معظم الأخطار ولكن عودا قبل منتصف الليل .

ردت "روني" :

– لا مجال للمناقشة. ولكن هل تخفي شيئا ؟

– لا شيء غير عادي.. مجرد إجراء بعض المكالمات. سأتصل بالسفارة لمعرفة هل مواطنو "سان ميجيل" قد وصلوا مؤخرا إلى "بورتوريكو" ...

قطبت "روني" جبينها وقالت :

– أرجو ألا تنطلق وراء خبطة صحفية بدوني .

– لا تقلقي فلن أتحرك ما لم يكن "ستيفن" و"إيزابيل" في أمان تام .

انفتح باب المصعد عند الدور الخامس فقال :

– منتصف الليل.. وإذا أتيتما متأخرين فاتصلا بي .

كان مشهد "جيد" يثير القلق؛ فقد بذل جهدا ضخما بعد الوصول إلى "جورج تاون" لتسوية الإجراءات الإدارية والرسمية وأن يعثر على طائرة خاصة. من غير شك أنه لم ينم أكثر من ساعة منذ رحيلهم من "سان ميجيل" .

بعد ساعة خرجت "إيزابيل" من الحمام وقد ارتدت ثوبا منزليا من "البشكير" قدمه لها الفندق وذهلت عندما وجدت "جيد" جالسا في مقعد ذي مسندين :

– لا تخافي. أردت أن أحدثك قبل فوات الوقت .

– ماذا تريد؟ وكيف دخلت الغرفة ؟

– أريد أن أحدثك دون مقاطعة من أحد وقد حصلت على نسخة من مفتاح حجرتك من عاملة الاستقبال .

عبرت "إيزابيل" الحجرة وجلست على حافة السرير :

– لقد ظننت أنك تريد إجراء بعض المكالمات .

– لقد تم ذلك واتصلت بالسفارة ويبدو أنه لا يوجد أذناب لـ"مورينو" هنا في "سان جوان" .

– أعتقد أن لديّ إحساسا بما ستقوله لي فقله؛ فمن حقك أن تحنق عليّ وتغضب مني .

– بحق السماء أرجوك يا "إيزابيل" أن تسترخي.. إنني لا أريد أن أسبك أو أضربك .

قالت وهي تضحك ضحكة مرتجفة :

– ومع ذلك أستحق ذلك .

– لقد كنت أظن أنك فهمت أنني لا أسيء معاملة النساء. أنا لم أحضر إلى هنا لأن أتشاجر معك .

– في هذه الحالة.. لماذا جئت ؟

– لأسألك هل كذبت عليّ عندما قلت إنك تحبينني ؟

نكست رأسها ونظرت إلى الأرض :

– ليس لهذا أي أهمية. لا أريد أن أضايقك ولست مضطرا لأن تحمل همًّا .

– هل هذا صحيح؟ نعم أم لا ؟

– نعم. ليس لهذا معنى.. أليس كذلك؟ ولكننا بدأنا كل شيء بالمقلوب، وهو أمر لا يمكن أن ينجح. هناك أمور كثيرة ضدنا .

– مثل ماذا ؟

– أنت تربط بيني وبين اللوحة دائما، أنت لا ترى "إيزابيل" الحقيقية. نحن متناقضان تماما .

– استمري ..

– لقد سبق وأخبرتك أن الأقفاص تخيفني .

– هل هذا كل شيء ؟

– ألا يكفي هذا؟ شيء أخير... أنت لا تحبني .

– هل انتهيت ؟

– نعم .

نهض "جيد" واتجه نحو الباب. كان عليها أن تتوقع رد فعله هذا ومع ذلك أحست بالجرح :

– أين أنت ذاهب ؟

ساعود إلى حجرتي بعد أن حصلت على الإجابة .

– فهمت .

قال وهو يفتح الباب :

– أشك في ذلك. أنت مخطئة تماما بشأني. لقد أعددت ملفا جميلا مكونا من افتراضات بسيطة لأنك ببساطة تخشين الارتباط برجل. لقد اعترفت لي بالحب مؤقتا؛ وبالتالي لا مخاطر من ورائه.

كان يتحدث بصوت مشدود حتى إنها وجدت صعوبة في التنفس.

استطرد "جيد" :

– ومن ناحية أخرى أستطيع أن أدحض كل حججك واحدة بعد الأخرى.

أولا: صحيح أنني ساكون متملكا في علاقتي بك ولكني لست غبيا

لدرجة لا أفكر في إيجاد حلول وسط.

ثانيا: لو كانت طباعنا متشابهة لشعرنا بالملل القاتل بعد شهر.

ثالثا: إذا كنت أتعرف عليك في صورة لوحة "زوجة الشتاء" فإن ذلك لأنك جميلة وأنك تسيطرين علي لدرجة الاضطهاد مثلها. فهل هذا رهيب لهذه الدرجة ؟

– ولكن.. لا ..

– إذا كنت سأرحل عن هنا فلانني لا أستطيع السيطرة على نفسي.. ولكن لابد أن أسيطر على نفسي .

– أرجوك يا "جيد" .

– وآخر غلطة هي أنني أحبك.. رحماك ربي !

صفق باب الحجرة خلفه. لم تستطع "إيزابيل" من ذهولها أن ترفع عينيها عن الباب.. لقد اجتاحها نوع رهيب وعظيم من المرح والنشاط. لقد كانت كل حجة من حججها قد انهارت أمام منطقه المعقول، وإن كان فيض العواطف الذي اجتاحها لا يصلح معه أي منطق أو رشاد .

هل "جيد" على حق؟ هل أعماها الخوف من أن ترتبط به؟ لقد محت كلماته الاخيرة كل فرضة أمامها للتفكير بوضوح عندما قال لها :

"إنني أحبك و.. رحماك ربي !"

*****

مسحت "إيزابيل" كفيها المبتلتين في جيبتها قبل أن تطرق الباب. لم تتلق أي رد. كان الوقت يقترب من منتصف الليل. لقد مرت ساعتان على مغادرته حجرتها. هل نام؟ هل خرج؟

انفتح الباب فجاة على "جيد" في ثوب الحجرة الليلي وشعره الفضي لايزال مبتلا من الدش .

توترت كل عضلة في وجهه عند رؤيته لـ"إيزابيل" . قالت :

– هل يمكنني الدخول ؟

هز رأسه وجذبها من يدها بشدة وأمرها بالجلوس :

– إنني أتحدث مع "واشنطن" .. سانهي المكالمة وأعود .

فتحت فمها لتعترض فاشار إليها أن تجلس ثم قال في سماعة التليفون :

– كف عن المعارضة.. إنني أريد أن أسوّي تلك الفوضى للمرة الأخيرة.

ثم وضع السماعة بعنف وواجه "إيزابيل" وسالها :

– ماذا ؟

– لماذا كنت تتحدث مع "واشنطن" ؟

قال لها متجاهلا سؤالها :

– ماذا تريدين ؟

– هل "مورينو" ؟

– أنا لا أتحدث عن "واشنطن" ولا عن "مورينو" ولا عن شقيقك، أريد أن أعرف ماذا تفعلين هنا ؟

ابتلعت ريقها بصعوبة وقالت :

– لقد قلت لي إنك لن تصدر إليّ أوامر وإنني باستطاعتي الحضور إليك.

– لتكن صريحين.. هل تريدينني ؟

– نعم ولكن هناك ما أود أن أقوله لك.. لست أدري.. هناك الكثير من المشاكل .

– أنا لا تهمني المشاكل.. الشيء الوحيد الذي يهمني هو أنك هنا.. وأنك تبادلينني الانجذاب ولكن اخبريني أولا أنني لا أجبرك على تبادل الحب معي .

– لا.. إنني أحبك فعلا .

انهار الجدار الذي كانت تحتمي خلفه، ولم يعد هناك سوى مشاعر متضاربة بين الحب والوحشية ومع ذلك كانت الرقة الشديدة تسود علاقتهما .

قال لها بعد أن نهلا من نهر السعادة :

– الأمر الآن بيدك إن كنت تثقين بي أم لا. ولكني أحذرك أنك إن كنت لاتزالين لا تثقين بي فإنني سأظل أحاول ان اقنعك حتى لو تطلّب ذلك الخمسين سنة القادمة من عمري إذا قدّر لي العيش ..

*****

رن جرس التليفون. تساءلت "إيزابيل": لماذا لا يرد عليه "جيد"؟ بعد أن قفزت فزعة من نومها، وفي الرنة الثانية اجتاحتها رجفة عدم الارتياح. فتحت عينيها وتصلب جسدها في الحال؛ لا يوجد "جيد"، وعندما استمر رنين التليفون أمسكت بالسماعة وقالت:

– آلو..

سألتها "روني" دون مقدمات:

– منذ متى رحل؟

– ماذا؟

تضاعف شعور "إيزابيل" بالقلق والخوف، جلست ورفعت شعرها الذي سقط على عينيها.

قالت "روني":

– لقد رحل بدوني عليه اللعنة! ولكنه لن يفلت بسهولة من فعلته.. ما الزمن الذي سبقني به؟

– لست أفهم عمّن تتحدثين. ماذا جرى؟

– ألست على علم بما جرى؟ إن "جيد" يريد رأس "مورينو" وقد رحل إلى هناك.

تجمدت الدماء في عروقها وسألت "روني":

– وكيف عرفت ذلك؟

– معي الآن السيد "ب. بروكنج" من المخابرات المركزية. لقد استخدم "جيد" علاقاته في "واشنطن" وقد أرسلوا السيد "بروكنج" لنقلنا إلى "أمريكا".

– لست أفهم.

– إن "جيد" يخشى رد فعل "مورينو" وقد نظم الأمور ليضعنا في حماية "بروكنج" حتى يلعب لعبته مع الجنرال.

– أية لعبة؟

– لعبة القط والفار. لقد أثار فرار "ستيفن" جنون "مورينو"، وظن "جيد" أن الوقت حان لينصب له فخا واستخدم لذلك طعما.

– يا إلهي!

سمعت صوت رجل فجأة يتحدث بدلا من "روني":

– السيدة "كوربن"؟ أنا "بول بروكنج". سيحضر إليك أحد رجالي لأخذ أمتعتك، وسيصحبك في البهو عندما تكونين مستعدة، وسنلتقي معك أنا والآنسة "دالتون" وشقيقك بعد ثلاثة أرباع الساعة.

سألته:

– أين "جيد"؟

– ليس من حقي أن أكشف عن مكانه ولكنه ترك معي رسالة لك. يجب ألا تتبعيه إلى "سان ميجيل"؛ لأن وجودك هناك غير مرغوب فيه. إن ذلك يهدد بعدم حصوله على مساعدة المتمردين، وسيتصل بك في أقرب فرصة ممكنة. إلى اللقاء بعد ثلاثة أرباع الساعة في بهو الفندق.

ثم وضع السماعة. وضعت "إيزابيل" سماعتها وهي ترتجف، كيف يمكنها أن تخمن ما الذي سيفعله "جيد"؟ إنه "لانسلوت" الفارس المنقذ.

أحاطت بها غلالة مثلجة من الخوف، ذهبت إلى الحمام وهي تسير مترنحة ثم فجأة حل الغضب الشديد محل الخوف.

كيف يجرؤ أن يفعل بها ذلك؟ كيف يخاطر بحياته؟ حياته! توقف الغضب فجأة.. يمكن لـ"جيد" أن يموت. إن "مورينو" قادر على أن يقتله كما سبق أن قتل العديد من قبله وهي لا تستطيع أن تفعل شيئا.

لم يسبق لها أن أحست بهذا العجز. لا يمكن أن يموت "جيد"! إنها ستنتظر عودته ولديها إيمان قوي لا يتزعزع في عودته، وأثناء ذلك يمكنها أن تمسك ببعض نواحي الموقف في يديها. إنها إذا لم تستطع مساعدة "جيد" يمكنها أن تسهر على سلامة "روني" و"ستيفن".

*****

عبرت "إيزابيل" البهو في اتجاه "روني" و"ستيفن" حيث وقف بجوارهما رجل فارع الطول قد تخلل الشيب شعره وإن كان وجهه صغيرا ومغطى

بالنمش .

– هل أنت السيد "بروكنج"؟ أنا "إيزابيل كوربن" هل اتفقت مع "جيد" على حمايتي ؟

همست "روني" من بين أسنانها :

– ليضعنا في جزيرة لا يعيش عليها بشر .

لمس "ستيفن" ذراع الفتاة في تعاطف :

– لقد سبق أن مررت بذلك. إنني أستطيع أن أتحمل أقصى جزيرة معزولة وخالية من البشر .

سألت "إيزابيل" "بروكنج" :

– كم من الوقت سنظل تحت الرقابة ؟

– بضعة أسابيع. اطمئني. لن تحبسي في زنزانة، لقد حجزت في فندق صغير ممتاز به حمام سباحة في "فيرجينيا حيث ستجدون كل الراحة .

– أنا شاكرة وممتنة مساعدتك لنا، ولكني أنا التي ستختار المكان الذي نلجأ إليه .

قطب "بروكنج" حاجبيه :

– إن هذا يدل على الطيش. نحن لدينا خبرة أكبر من خبرتك في الموضوع.. ثقي بي، ودعيني أقوم بعملي .

– لست ساذجة يا سيد "بروكنج" . إنني لن أرتكب نفس الغلطة بان أعرض حياتنا للخطر .

سألتها "روني" :

– فيم تفكرين ؟

– أعرف مكانا معزولا حيث نتمتع فيه بكل الحرية وحيث يستطيع السيد "بروكنج" السهر علينا .

– أي مكان ؟

– "جزيرة الشتاء" .

عندما اقتربوا من مدخل القصر أطلقت "روني" صفارة إعجاب وصاحت :

– إنه مثير! إن "جيد" لم يحدثني أبدا عن بيته ولكني لم أتوقع أن

يكون قصرا مثل قصر "ويندسور" !

قالت "إيزابيل" قبل أن تلقي نظرة على "ستيفن" :

– لقد صادف مشاكل مع "جزيرة الشتاء".. إنني أجدك قلقا ومهموما يا "ستيفن".. لماذا ؟

ابتسم لأخته ابتسامة صفراء وعيناه تتركزان على الأبراج المستديرة الحجرية. قال :

– لا.. لا.. كل شيء على ما يرام. سأتغلب على ذلك .

أمسكت "روني" بذراع "إيزابيل" بقوة وهمست :

– يا إلهي! من هذه العملاقة المتوحشة ؟

كان وجه "بيتي" متجهما كالعادة وهي تفتح باب القصر وتنتظرهم في ثبات في مكانها. بدأت "إيزابيل" تحترق بداخلها من تلك المواجهة المرتقبة:

– أعرف أنك ستعودين زاحفة !

مسحت عينا "بيتي" "روني" و"ستيفن" :

– من هذان الشخصان؟ إنهما لن يدخلا هنا، إن السيد "آرنولد" لم يكن ليسمح ...

دارت "إيزابيل" حول الوصيفة لتدخل الردهة يتبعها أخوها و"روني" وقالت لـ"روني" :

– يمكنك أن تأخذي الحجرة التي تعجبك. فالحجرات كثيرة .

صاحت "بيتي" وهي تتبعهم :

– ولكني قلت لك إنهما لن يستطيعا الدخول .

قالت "إيزابيل" تخاطب شقيقها :

– هل هذا المكان يذكرك بالقلعة؟ لا تقلق، إن "جيد" يمتلك كوخا صغيرا على الجانب الآخر من التل ويمكنك أن تسكن فيه .

بدا الارتياح على "ستيفن" :

– أتظنين ذلك؟ صحيح أنني نلت كفايتي من القلاع ...

– يمكنك أن تذهب إلى الكوخ.. خذ الطريق الذي يهبط التل نحو

الجنوب.. لا يمكن أن تتوه عنه وسننتظرك في السابعة مساء من أجل العشاء .

اندفع الشاب دون حاجة إلى تكرار الطلب إلى الخارج .

صاحت "بيتي" كالكلب المسعور :

– ما هذا ؟ وباي حق تقولين له أين يسكن ؟

تجاهلت "إيزابيل" سؤال الخيزبون وأمرتها :

– سيحضر أربعة أشخاص آخرون هم حراس شخصيون خلال ساعة. أعدّي لهم حجرات مريحة .

– هل تصدرين أوامرك الآن؟ هل نسيت من أكون ؟

أجابتها "إيزابيل" بصوت مثلج :

– ساحرة شريرة من أول نظرة ولكن باعتبارك خادمة فمن المفروض أن تقومي بواجباتك .

– لن أطيع أوامرك .

– آه ! إذن ستندمين على وجودك هنا !

تدخلت "روني" ساخرة :

– ولكن من أين اصطدتها؟ إننا وكأننا في العصور الوسطى. أو أحد أفلام الرعب !

– لقد ورثتها مع القصر .

– لا غرابة في أنك تركته لـ"جيد" .

خرجت عينا "بيتي" من محجريهما وقالت مولولة :

– ليس هذا من حقك.. إن السيد "آرنولد" ...

أكملت "إيزابيل" :

– سرق الجزيرة من ابنه والآن عادت إليه.

انغرست أظافر "بيتي" في ذراع الشابة :

– أيتها المستهترة.. لقد أفسدت كل شيء! كان يكفي أن يشير إليك بإصبعه حتى ...

أمرتها "إيزابيل" بوحشية بينما تقدمت "روني" لمساعدتها :

– اتركيني !

– دعيني أتصرف معها يا "روني" .. مرة ثانية اتركيني !

غاصت قبضة "إيزابيل" في بطن المرأة السمينة التي أطلقت صيحة وأفلتت يد "إيزابيل" فوجهت لها حركة كاراتيه في رقبتها .

سقطت المرأة مثل الشجرة وهي تتطوح؛ أحست "إيزابيل" بنوع من الارتياح الوحشي وهي ترى تلك الطاغية ممددة فاقدة الوعي على الأرض .

– خذي يا "روني" الحجرة الملحقة بحجرتي وهي مطلية باللون الأصفر وهي أكثر بهجة.. ولكن لماذا تضحكين ؟

قفزت "روني" فوق جثة "بيتي" لتتبع "إيزابيل" وهي تقول :

– أضحك عندما أفكر في أنني ظننتك كريمة مخفوقة .

*****

نظر "جيد" إلى "بروكنج" غير مصدق وقال :

– ولكن لماذا نقلتهم إلى "جزيرة الشتاء" ؟

– إنها ليست فكرتي.. لقد رفضت "إيزابيل" بلا نقض ولا إبرام أن تذهب إلى الفندق وإنما إلى الجزيرة، من الواضح أنها لم ترغب في أن تجد شقيقها في نفس الظروف والجو الذي كان يعيش فيه في القلعة .

كان "جيد" يفهم ذلك ولكن ما حيره في اختيار الجزيرة أن "إيزابيل" لا تحب المكان كما أن "بيتي" لن تكف عن أن تحول حياتها إلى جحيم .

سأل الرجل :

– لقد مرت أربعة أسابيع.. لماذا لم تقل لي ؟

– مرة ثانية بسبب تصميم السيدة "كوربن"؛ لأنها لم ترغب في أن تقلقك. إنها تريد حمايتك بشكل حازم .

– حسنا.. شكرا يا "بروكنج" . إننا سنصل إلى "مورينو" ولكن كلما أسرعنا كان ذلك أفضل .

– أنا أيضا سعيد ولكن لا تنخدع به .

*****

همست "إيزابيل" ويدها قابضة على سماعة التليفون :

– "جيد"؟ هل أنت بخير ؟

كان رأسها يدور ارتياحا وسعادة. أجاب بجفاء :

– بخير.. ماذا تفعلين مع تلك الساحرة الشريرة ؟

– "بيتي"؟ إنها لم تعد هنا. لقد رحلت بعد وصولنا .

– لماذا ؟

– لم يعد القصر يمتعها.. هل أنت واثق بأنك لم تجرح ؟ و"مورينو" ؟

– إنه بين يدي "بيريز" زعيم المتمردين. إنها الفوضى الآن في البلاد، أخبري "روني" أنني صورت بنفسي القبض عليه في موقعه، وساصل إلى "سياتل" بعد الظهر وفي الجزيرة في الواحدة والنصف .

– سانتظرك .

– هل هذا صحيح.. هذه أول مرة يقول لي أحد ذلك .

وضعت "إيزابيل" السماعة والتفتت إلى "روني" :

– إنه سيصل إلى هنا في غضون ساعات .

– وماذا عن "مورينو" ؟

– لقد أسره "بيريز" وقد كلفني "جيد" ان أخبرك بأنه صور عملية القبض عليه إذا كان يسعدك هذا .

– كان لابد أن أكون موجودة هناك. حسنا.. ربما يحس "جيد" بانه مدين لي وعليه أن يشعر بالذنب ويتاكد من أنني سأجعله يدفع الثمن غاليا .

– هذا لا أشك فيه .

– أين أنت ذاهبة ؟

– أستعد لمقابلته. لقد حان الوقت لتسوية بعض التفاصيل .

*****

لمحها "جيد" عند ناحية الطريق المتعرج المؤدي إلى القصر: كانت واقفة بجوار الشجرة ورياح الشتاء تطير شعرها. وقف برهة ثم سارع الخطو نحوها .

استجمعت "إيزابيل" كل شجاعتها لتواجهه.

قال لها :

– أعتقد أننا انتهينا من ذلك اللغز.. لغز العباءات وأعتقد أن لديك سببا جوهريا لنتخلص منها، لابد أن لديك سببا لهذا التخفي؟

– نعم.. لديّ شيء مهم لابد أن أخبرك به.. لم أعد أخاف مما تمثله "زوجة الشتاء" بالنسبة لك، لقد فكرت طويلا في السؤال وقررت ألا أنافسها؛ إن لدي ما يكفي من الشخصية لأفرض نفسي.

– هذا ما كنت أحاول أن أقوله لك ...

– لا شك أنك لاحظت أنني عنيدة بعض الشيء. لقد كنت في حاجة إلى أن أصل بنفسي إلى هذه النتيجة .

– واضح.. أنا لا أشك في ذلك .

– ولقد حنقت حقا عليك لهجومك على "مورينو" .

– لقد كان من الضروري أن أنتهي من ذلك.. إنه كان سيواصل مطاردته لك دائما .

– ولكنك رفضت مساعدتي. لقد عاملتني كطفلة اللوحة. لقد حاولت حمايتي بينما ترفض في عناد أن أسهر عليك. إن هذا ظلم.

– لا.. الأمر يختلف.. لم يكن لديّ حرية الاختيار.. ولكن أنت على حق ولكني لا أطيق فكرة أن تصابي .

– لهذا طلبت من "بروكنج" أن يحبسنا في صندوق جميل بينما ذهبت لتشرثر مع الجنرال، لقد قبلت الأمر هذه المرة ولكني أفكر في الأخطار التي ستواجهها في الأعوام القادمة في مهنتك .

– هل أفهم من ذلك أن ارتباطنا سيستمر سنوات .

– ألم تقل خمسين سنة على الأقل ؟

– على الأقل .

– لقد أردت أن أشرح لك سبب عودتي إلى "جزيرة الشتاء" .

– لقد شرح لي "بروكنج" ذلك، لقد فكرت أن باستطاعتنا أن نظل هنا مادام لم يحاول رجال "مورينو" مضايقتك، ثم إننا نستطيع أن نستقر في

"سيائل"، وقد استأجرت بعض الحرس الخاص إلى أن ينتهي "بيريز" من التخلص من "مورينو" وأذياله، ولن يزيد الأمر على ستة أشهر.

قالت بصوت كالفولاذ:

– اسمعني يا "جيد": ساعمل كل ما في وسعي حتى تصبح بمأمن قدر المستطاع، ثم هناك أمر آخر: إنني أريد هنا على هذه الجزيرة وفي هذا القصر أن أتزوجك.

لم يصدق "جيد" ما يسمعه:

– هل تمزحين؟ لقد عشت الجحيم في هذا القصر.

– لهذا السبب أريد أن أتزوج هنا.. ألا تفهم؟ لابد من ذكريات جديدة رائعة تحل محل الذكريات القديمة، في وقت ما كانت أمك تعشق الجزيرة، وإذا تركت "آرنولد" – حتى بعد موته – يخرب ذلك فأنت ضائع، نحن أقوى منه ومن كل شيء يا "جيد" ولسنا في حاجة للفرار.

– هل هذا فعلا ما تتمنينه؟

– نعم أريد أن تصبح "جزيرة الشتاء" هي دارنا. لقد قلت لـ"روني": إنه لم يسبق لي أن كان لي دار ومن المهم أن يكون للإنسان جذور.

– ولكنك أخبرتني أكثر من مرة أنك لست "زوجة الشتاء".

– لقد كنت مخطئة.. أنا الزوجة الجديدة للشتاء. وعليك أن تعتمد عليّ كما أعتمد عليك.

قال بحنان:

– نعم.. وساحبك وأعزك طوال حياتنا.

همست:

– هل هذا صحيح؟

لمع بريق المكر في عيني "جيد" بلون اللازورد وقال:

– وكيف أجرؤ على أن أفعل غير ذلك.

تمّت بعون الله